منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2464) السنة التاسعة - الاربعاء (25) نيسان 2012

اثــر جـرجـي زيـــدان فــي نفسي

وفائيل بطي / صحفي عراقي راحل

للمؤرخ القومي الكبير جرجي زيدان فضل عظيم علي وأثر في توجيه نشأتي الادبية فقد استمرت وانا يافع كتاب مشاهير الشرق بجزئيه من استاذ فاضل لي فالتهمته قراءة وانا شغوف بقنيع صبر رجال الفكر والادب والصحافة الذين ارخ لهم زيدان في كتابه.
فكانت هذه السير من العوامل التي اوحت الى الاقدام في انتهاج طريق الفكر واستغلال نزعتي الادبية التي فطرت عليها والتوجه نحو الصحافة التي كشفتها من نعومة اظفاري.
وليس كتاب جرجي زيدان وحده قد اثر في توجيهي في مطلع حياتي الفكرية بل ان جانبا واضحا من سيرة جرجي زيدان نفسه وعصاميته قد كان له اعمق الاثر في نفسي ففي العهد الذي اتحدث عنه وقعت في يدي بضعة اعداد من مجلة "النفائس العصرية" التي كان يصدرها في القدس قبل الحرب العظمى الاستاذ خليل بيدس فوقفت في مطاويها على خطب وقصائد القيت في تكريم مؤسس "الهلال" لدى زيارته لفلسطين سنة ١٩١٣. وقد لفت نظري فيها بعض الطرف عن حياة المؤرخ الكبير واقدامه وبعد همته، اذ روي احد خطباء حفلة تكريمه ان جرجي الناشيء كان كلما مر بمكتبة كبيرة لبيع الكتب في بيروت تحرق ان ليس لديه من المال ما يمكنه من ابتياع ما يشتهي ذهنه من الكتب والتأليف، فكان هذه الثروة قد ترددت بين ضلوعي وحركت الما يحز في نفسي مثل ذلك الالم.
ونقطة باهرة اخرى المع الخطيب اليها في سرده ترجمة جرجي زيدان هي انه وصل القاهرة مهاجراً من بلده "لبنان" وهو لا يملك غير ثلاثة جنيهات استقرضها من صديق وظل يكافح في ميدان الحياة ويتزيد من ثقافته وعلمه ويتوقل من شعاب الحياة العلمية حتى اصبح من كبار اصحاب الاعمال الناجحين في الصحافة العلمية والتأليف والنشر فضلا عن المنزلة الرفيعة المناطقة التي رقى اليها بجده فعد في مصاف كبار رجال العلم والادب.
لاينكر ان التحليل العلمي بمقاييس النقد الحديثة لا يضع جرجي زيدان في مرتبة المؤرخين المحققين في كل ما كتب ودون ولا يمكن ان يحصى الناقد الحديث اثار جرجي زيدان التأريخية بين المراجع والاسانيد القوية التي تحسب من المراجع الخالدة المعول عليها في المكتبة التاريخية، وقد المع الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه "ذكرى ابي العلاء" الى اسباب هذا النقص في تكوين المؤرخ المعاصر ولكن الحقيقة التي لا مرية فيها ان جرجي زيدان قد خدم البعث الفكري والنهضة القومية في الشرق العربي خدمات جليلة في ناحيتين بارزتين – ستسجلان على مدى الاجيال يده البيضاء في الحياة العقلية للعرب في القرن العشرين.
(اولاهما) هذه الروايات التاريخية التي جلى فيها الامجاد العربية والتاريخ الاسلامي على وجه مشوق للقراء، فتألف هذه الروايات الشباب العربي في كل مكان فكانت من عوامل ايقظهم الى تراث السلف الصالح وافنتائهم بامجاد العرب في عصورهم الزاهرة، وان كان بعثور هذه الروايات النقص التي من ناحية فن الرواية.
والمزية الثانية لجرجي زيدان قائمة بانه اول من شق الطريق لكتابة تاريخ الاداب العربية وتاريخ التمدن الاسلامي باسلوب النقد للقارئ الحديث من مجاميع المؤلفين القدماء التي اختلط فيها الحابل بالنابل سواء في تاريخ الادب وسير رجاله ارقى التاريخ السياسي والعام للعرب والاسلام.
هذه كلمة عجلى يستفاد منها اني اعتبر جرجي زيدان علما نيرا من طلائع رجال النهضة العربية في هذا العصر.

م. *الهدف* – ٢١ تموز ١٩٣٩

انصفوا هذا الرجل

جرجي زيدان النموذج الأمثل للعصامية والنبوغ العبقري

عبد الحميد الرشودي

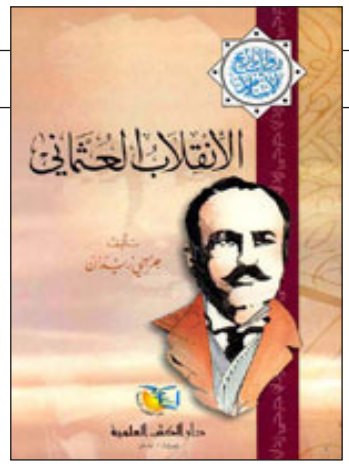

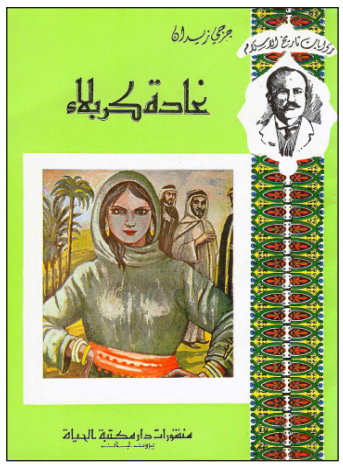

مما ل يرقى اليه شك و لا يختلف فيه اثنان ان جرجي زيدان كان مثالا عاليا ونموذجا مثاليا للعصامية فقد استطاع هذا الفتى ان يعوض ما فاته من الدراسة النظامية بجده و اجتهاده و ان يقرأ كل ما وصلت اليه يده من الكتب فقد ذكر جرجي زيدان ان والده كان اميا وقد شعر بالحاجة الى من يعرف الكتابة والقراءة حين فتح مطعما وكان من زبائن هذا المطعم من يتعامل بالنسيئة فيحاسب شهريا او اسبوعيا وتحت مسيس هذه الحاجة ارسله الى المدرسة مبكرا فلما تعلم فك الحرف والحساب الحقه والده في المطعم ليعينه في ادارته وقد ظل الم الحرمان من مواصلة الدرس هاجسه وهمه المقيم المقعد حتى اذا اتيح له ان ينتظم طالباً في الجامعة الامريكية بعد اختبار اجتازه بنجاح وتفوق ولكن حدث ان بعض الطلاب اضربوا وكان جرجي زيدان واحدا منهم ففصلوا وهنا شد الرحال الى مصر على امل اكمال دراسته الطبية ولكنه استطال المدة فعمل محرراً في صحيفة الزمان لمنشئها علكسان صرفيان التي صدر عددها الاول في ٦ اذار ١٨٨٣ وقد انتمى وهو في بيروت الى مدرسة ليلية لتعلم اللغة الانكليزية فاستطاع بجده واجتهاده وتصميمه ان يتعلمها في خمسة اشهر ثم التحق بالحملة الانكليزية الى السودان سنة ١٨٨٤ لنجدة غورون باشا فسار برفقتها مترجما بقلم المخابرات فرسخت معرفته اللغة الانكليزية وقد دامت هذه الحملة عشرة اشهر فعاد الى بيروت سنة ١٨٨٥ وبعد وصوله انتدبه المجمع العلمي الشرقي ليكون عضوا عاملا فيه فمكث في بيروت حوالي عشرة اشهر يطالع اللغات الشرقية فدرس العبرانية والسريانية واخواتها فاستطاع ان يؤلف كتابا في الالفاظ العربية والفلسفة اللغوية.

وفي صيف ١٨٨٦ زار لندن واطلع على متاحفها وكلياتها ولاسيما المتحف البريطاني ثم قفل راجعاً الى مصر فطلبت منه مجلة المقتطف ان يتولى اعمالها ويشارك في تحريرها فاستجاب الى طلبها حتى اوائل سنة ١٨٨٨ فاستقال وانصرف الى الكتابة والتأليف فالف تاريخ مصر الحديث في مجلد ين كبيرين وقد بذل جهدا جهيدا في تاليفه وقد طبع الجزء الاول منه بمطبعة الهلال سنة ١٩١١ وهو في ٣٧٨ صفحة ويبدأ من الفتح الاسلامي الى دولة المماليك الثانية وفي سنة ١٨٨٩ الف تاريخ الماسونية العام وهو اول كتاب يكتب عن هذه النحلة بالعربية ثم توالت مؤلفاته بعد ذلك وفي اواخر سنة ١٨٨٩ انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الارثوذكس بمصر ليتولى ادارة التدريس العربي فيها فاستمر في ادارتها سنتين وهو لاينفك اثناء ذلك عن التاليف، وهنا راودته فكرة اصدار مجلة الهلال في اواخر سنة ١٨٩٢ فكانت فتحاً ادبيا مبينا لا جرم انها صرح ثقافي مجرد تخرجت به اجيال كثيرة في جميع البلاد العربية من مشرقها الى مغربها وقد كانت ولاتزال ميدانا لاقلام كبار الادباء والمفكرين وقد بلغ عمرها المديد ١٢٠ عاما وهو عمر لم تعرفه اية صحيفة عربية غيرها.

وفاته:

في مساء الثلاثاء ٢١/آب/١٩١٤ وحوالي الساعة الحادية عشرة اقصى وافته المنية بغتة وما كان يشكو علة ولا مرضا فما هي الا شهقة ارتج لها من في البت فهرعوا مسرعين اليه حتى فاضت روحه الشريفة وخر ذلك النسر المحلق في الجو ليسكن الارض ويوارى بالتراب.

وقد شيع جثمان الفقيد بما يستحق من التكريم والتوفير فقد خرج موكب الجنازة من منزله في شارع الظاهر يتقدمه رجال البوليس الفرسان والمشاة وحملة الاكاليل وساروا به الى المقبرة في مصر العتيقة.

آثاره:

كتب جرجي زيدان في مواضيع شتى وكان يؤثر الوضوح ويتوخى العبارة السهلة في كل ما يكتب وكان يزينه كتبه بالصور والخرائط ابتغاء الدقة والاتقان ورغم قصر المدة التي عاشها وهي (٥٣) سنة فقد ملأت مؤلفاته رفوف المكتبات العامة منها والخاصة.

هو تحبيب التاريخ للنشيء لكي يتعرفوا على تاريخهم ويشوقهم على دراسته لذا جعل رواياته التاريخية متسلسلة منذ ظهور الاسلام وكل رواية تتناول عصراً تاريخياً متصف رجاله وحوادثه وعاداته فهو لم يغلب الفن وادخال عنصر التشويق والترغيب لدى القراء على حساب الحقائق التاريخية وهذا سرد برواياته:

١- فتاة غسان (جزءان).
٢- ارمانوسة المصرية،
٣- ١٧ رمضان.
٤- عذراء قريش.
٥- غادة كربلاء.
٦- الحجاج بن يوسف.
٧- فتح الاندلس.
٨- شارل وعبد الرحمن الناصر.
٩- ابو مسلم الخرساني.
١٠- العباسة اخت الرشيد.
١١- الامين والمأمون.
١٢- عروس فرغانة.
١٣- احمد بن طولون.
١٤- عبد الرحمن الناسر.
١٥- فتاة القيروان.
١٦- صلاح الدين ومكايد الحشاشين.
١٧- شجرة الدر.
١٨- الانقلاب العثماني.

وله اربع روايات خارجة عن السلسلة وهي:

١- المملوك الشارد.
٢- اسير المتمهدي.
٣- استبداد المماليك.
٤- جهاد المحبين.

لقد تأثر جرجي زيدان منذ صباه بوالديه فهو يرى اباه تخرج الى دكانه من الفجر ولايعود الا في موهن من الليل ويرى والدته وهي حركة دائبة لا تهدأ لحظة من الغداة الى العشي لاتعرف الزيارات ولا الاحتفالات ولم تكن كسائر النسوة خراجة ولاجة تلتقي بنسوة الحي فتمضي بباقي يومها بالثرثرة والنميمة، ان هذا السلوك لا يعيره عرشن في ذهنه حقيقة لايجاري فيها الا جاهل او غافل وهي حقيقة الانسان خلق ليعمل وينتفع وبنتفع لا جرم اذا رأيناه يعمل بلا كلل او ملل وكثيرا ما كان يصل الليل بالنهار ليدرس ويكتب ويؤلف. ومن طريق ما يروى انه لما اقيم له حفل تأبيني كبير وبعد ان فرغ الخطباء والشعراء من القاء خطبتهم وقصائدهم وتقديم عريف الحفل وقال والان اقدم لكن الخطيب الصامت وكشف الغطاء عن منضدة كبيرة وقد وضعت عليها كتبه ومؤلفاته فأبى الخطباء ابلغ من هذا الخطيب الصامت.

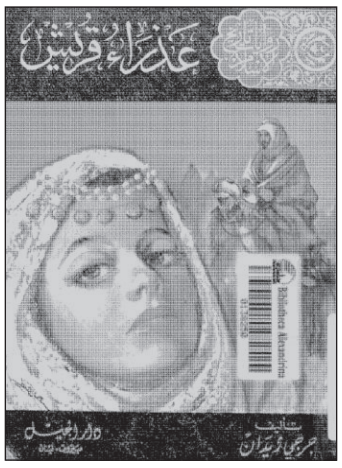

- مؤلفاته التاريخية واللغوية:

١- تاريخ مصر الحديث جزءان.
٢- تاريخ التمدن الاسلامي خمسة اجزاء.
٣- تاريخ العرب قبل الاسلام
٤- تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر جزءان.
٥- تاريخ اداب اللغة العربية اربعة اجزاء.
٦- الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية.
٧- تاريخ الماسونية العام
٨- تاريخ اللغة العربية.
٩- انساب العرب القدماء.
١٠- علم الفراسة الحديث.
١١- طبقات الامم.
١٢- عجائب الخلق.

وقد نقل كتابه تاريخ التمدن الاسلامي الى خمس لغات هي الاوردية والتركية والانكليزية والفرنسية والفارسية.

- رواياته:

لم يرد في هذه الروايات ان يكتب تاريخا بل كل الذي كان يهدف اليه من كتابتها

جرجي زيدان في سطور (١٨٦١ – ١٩١٤):

١- ولد في بيروت في ١٤ ايلول سنة ١٨٦١.
٢- تلقى مباديء العلوم في بعض مدارسها الابتدائية.
٣- ولما تعلم فك الحروف وشيئا من الحساب الحقه والده ليساعده في ادارة مطعم له في بيروت.
٤- ثم حفزه طموحه الى تعلم اللغة الانكليزية فالتحق في مدرسة ليلية استطاع خلال خمسة اشهر ان يروض اللغة الانكليزية فتعلمها.
٥- انتمى الى جمعية "شمس البر" الادبية وحرص على حضور حفلاتها.
٦- وفي سنة ١٨٨٠ ترك اشغاله وانصرف بكليته على طلب العلم.
٧- دخل المدرسة الامريكية لدراسة الطب بعد ان اجتاز اختبارا اهله للقبول فمكث فيها حولين كاملين.
٨- وعندما اضرب طلاب الكلية فصل منها بعد ان حاز شهادة في العلوم الصيدلية.
٩- قصد مصر بعد الثورة العربية سنة ١٨٨٢ وفي نيته اكمال دراسة الطب.
١٠- ولما رأى ان مدة الدراسة تستغرق سنوات عمل محرراً بجريدة الزمان لمنشئها علكسان صرفيان التي صدرت في آذار ١٨٨٣.
١١- وفي عام ١٨٨٤ صحب الحملة الانكليزية الى السودان بصفته مترجما بقسم المخابرات.
١٢- وبعد عشرة اشهر عاد الى مصر وقد حصل على أوسمة تقديرا لخدماته.
١٣- وفي سنة ١٨٨٥ انتدبه المجمع العلمي الشرقي في بيروت ليكون عضواً.
١٤- اقام في بيروت عشرة اشهر فدرس اللغات العبرية والسريانية وغيرها.
١٥- وفي سنة ١٨٨٥ انتدبته مجلة المقتطف لادارة اعمالها وبعد عامين في عمله ترك المقتطف وانصرف الى الكتابة والتاليف واصدر سنة ١٨٩٢ مجلة الهلال.

أول ما عرفت جرجي زيدان

كان ذلك في السنة الثامنة او التاسعة من هذا القرن، وكنت حينئذ مدرسا للغة العربية وادبها بكلية الغرير بالخرنقش من القاهرة، ثم زادوني حصة كل يوم بمدرسة القرير الابتدائية بالفجالة. وكان تلاميذي بهذه المدرسة من الصبية الذين تختلف اسنانهم بين الثامنة والعاشرة، واكثرهم من ابناء الجالية اللبنانية التي تكتر في هذا الحي، فكانوا صباح الوجوه حسان الهندام، ولكنهم كانوا من حيوية الطفولة ومرح الحداثة في حركة دائمة وزقزقة مستمرة! فكنت اتسع لهم حينا فانذرهم باللسان، واضيق بهم حينا فازجرهم باليد.

احمد حسن الزيات

اديب ومنشيء مجلة الرسالة

وكان من بينهم صبي خفيف لايكاد يستقر على حال ولا يستمر على وضع لايكتفي بالعبث في موضعه ولا بالحديث مع جاره، وانما ينتقل من درج الى درج، ويقوم من تلميذ الى تلميذ: ياخذ من هذا ايقونة او صورة، ويعطي ذاك لعبة او "بلية". وفي حالي الاخذ والعطاء لابد من كلمة مسموعة او حركة خشنة او نحكة مرتفعة. فكنت استدعيه الى واليه بالكلمة اللينة وامنيه "بالعلامة الطيبة" فيسكن قليلا ثم يثقل على اعصابه السكون فينفجر بالحركة انفجارا يزعج هدوء الاطفال ويهوش نظام الفصل. فاستدعيه ثانية واستبقيه بجوار المنصة، رجلاه مصفوفتان ويداه مرسلتان ووجهه الى الحائط. فلا يلبث على هذا الوضع الا دقيقة او اقل ثم يهز كتفيه ويطلق يديه، ثم يستدير بوجهه ويرسل عينيه في جوانب الفصل فتشخص اليه الابصار. ونفتر له الشفاه وينتظر الاطفال ماذا يكون من امر هذا البطل الذي يتحدى سلطان المعلم. فلم اجد بدا من ضربه "علقة" على يديه بكعب الكتاب. فتلقى الضربات كاظما على جرئه حتى انتهيت، ثم مضى مسرعا الى مقعده وكفأ وجهه على يديه فوق الدرج واخذ يبكي. وخشع رفاقه من الخوف فلزموا الهدوء، واحسنوا السماع حتى دق الجرس.

وفي اليوم التالي اقبل علي في اول الحصة هذا التلميذ المتمرد وقد اتخذ هيئة الرجل الجاد وسمت الغاضب المبتسم فالقى الي رسالة كانت في يده، ثم عاد الى مكانه في هدوء وقعد في صمت، ففضضت الرسالة فاذا فيها ما نصه:

استاذنا الفاضل

"ولدك وولدي شكري زيدان يشكو من ان معلمه لايعامله بالعطف الذي يعامل به الاخرين، وانه قسا عليه بالامس قسوة لم يتعودها منه. والاطفال بطبيعتهم يبالغون. ولكن الاستاذ الفاضل يتفق معي على اي حال في ان انجع الوسائل في التربية الحديثة هي تحبيب الاطفال بالنظام والعمل من طريق الملاينة والحيلة. وارجو مستقبلا ان يجد الاستاذ من تلميذه ما يحب من الطاعة، وان يجد التلميذ من استاذه ما يرغب من العطف. وانتهز هذه الفرصة لاقدم الى الاستاذ تحيتي..

المخلص

"جرجي زيدان"

طويت الرسالة ووضعتها في جيبي لاعيد قرائتها بعد. ونظرت الى شكري وكان يحاول ان يقرأ اثرها وجوابها في وجهي، فابتسمت له وابتسم لي، وجرت الريح بيني وبينه رخاء بالسلام والحب حتى انقضى العام، وباعدت بينا مفارق الطريق واتجاهات الحياة فلم اره الى اليوم!

عدى الى الرسالة فقرأتها مرة اخرى، ثم اخذت اصمد النظر فيها واصوبه وانا اقول لنفسي: إذن هذا الصبي المضروب هو ابن جرجي زيدان، وهذا الكلام المقروء هو كلام صاحب الهلال، وهذا الادب الرفيع هو ادب مؤرخ الاسلام! لقد رأت لصاحب هذه الرسالة النصيرة وولد هذا الرسول الصغير، كل ما كتب من قصص والف من كتب ونشر من بحوث، نشأت بيني وبينه على البعد تلك الصلة الروحية التي تصل بين الفكر الناشئ والفكر المنشيء، وترتبط بين الطالب المريد والاستاذ الواصل.

وكان جرجي زيدان يومئذ قد انفرد في العالم الاسلامي كله بالتاليف والكتابة فيما ليس للعرب والمسلمين به علم من تاريخ العروبة والادب والحضارة والاسلام بالاسلوب الواضح والنقص العجيب والعرض الطريف، فكان ما الفه من الكتب في تاريخ العرب قبل الاسلام، وتاريخ اللغة العربية، وتاريخ التمدن الاسلامي، وتاريخ آداب اللغة العربية، وما انشأه من القصص التاريخية الاسلامية على نحو ما فعل (ولتر سكوت)، فتحا مبينا في ميدان الثقافة العربية قرب الموارد لكل باحث، ومهد السبيل لكل كاتب.

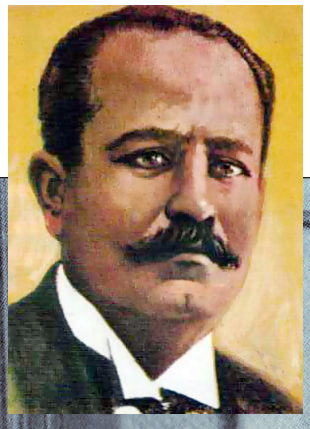

شكري زيدان في مكتبه في دار الهلال في العشرينيات

وكنت في هذه السنة نفسها طالبا بالجامعة المصرية الاولى بجانب صديقي طه حسين ومحمود زناتي، فترامى الينا ان مجلس ادارة الجامعة قد قرر تعيين الاستاذ جرجي زيدان استاذا لكرسي التاريخ الاسلامي بالجامعة، فهزنا هذا الخبر وسرنا ان نكون تلاميذ المؤرخ الكبير عن طريق المحاضرة، بعد ان تلمذنا اليه طويلا عن طريق القراءة، ولكن بعض الاراء المتزمته الرجعية قد ساورت بعض الاذهان المتخلفة النبيه. فخلت الاستاذ الكريم السمح على ان يعتذر من قبول هذا المنصب بعد ان اعد المحاضرات وصور الخرائط! واستمر البيضاء على الكرسي الجامعي الوثير، تردد ما قال الطبري وابن الاثير!

ثم عدت الى الرسالة مرة ثالثة اتملاها واتأملها ثم كتبت الجواب عنها بالاعتذار والشكر وارسلته مع البريد. ثم رأيت بعد ايام ان ازوره في ادارة الهلال، فتكشف لي من لقائه الجميل، وحديثه العف، واطلاعه الواسع، وتواضعه الجم، عن طراز من العلماء فريد لم الق مثله فيمن لقيت من العلماء في الازهر ودار العلوم والجامعة.

والحق ان جرجي زيدان مدين بعلمه وفضله ونجاحه لاخلاقه، واشد اخلاقه اثرا في حياته صدقه وجده ودأبه ومثابرته.

تخرج في اكثر العلوم على نفسه، وشق طريقه في الصخر بسن قلمه، واختار لجهاده الادبي الميدان البكر واعد له ما استطاع من قوة الصبر وصدق العزيمة، فانتصر انتصارا عز على غيره، وعاد بالنفع والخير على قومه.

ولزيدان شرف الريادة لمنتجعي الادب، وفضل السبق الى فن القصة، وحسن القدوة في مهنة الصحافة، وحق الاستاذية في الهلال على حال من السن والثقافة تؤهلني لصداقته. كنت في بداية الشباب وكان في نهاية الكهولة، وكنت من شداة الادب وكان من اقطاب العلم، فقلت العلاقة بيني وبينه علاقة طالب باستاذ وصلة قارئ بمؤلف. قلما قويت انامليَ على حمل القلم، وصلح تفكيري لتغذية الهلال، كان قلمه قد جف وذهنه قد انطفأ

لذلك اثرت ان يكون اول ما اكتب للهلال تحية من القلب العروف اقدمها لذكراه،وباقة من الادب الصدوق انثرها على قبره.

جرجي زيـــدان البحـاثـة الـمـؤرخ

محمد ابراهيم / من كتاب العراق في الثلاثينيات

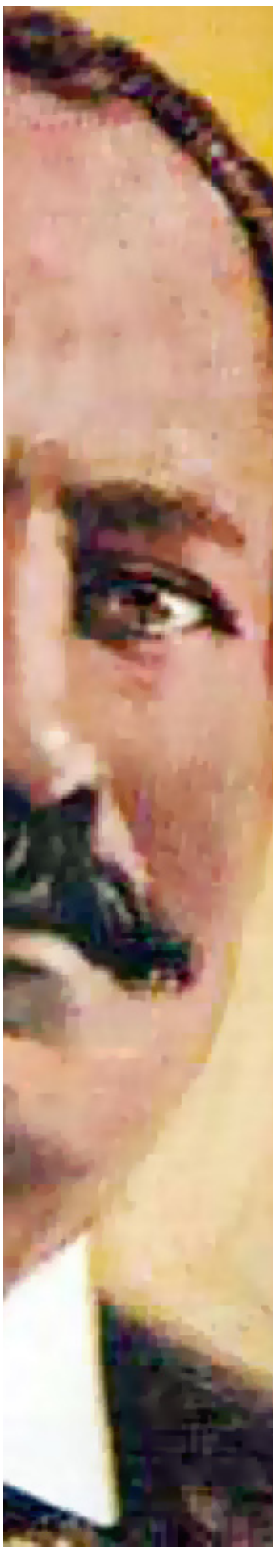

ويا قبر زيدان طويت مؤرخا
تجلى له ما اضر الفتيان
وعزما شاميا له اينما مضى
شبا هندوا ني وحد يماني
وكما اذا جالت على الطرس جولة
تمايل اعجابا بها البلدان
اشادت بذكر الراشدين كانما
فتى القدس ممن يثبت الحرمان

حافظ ابراهيم

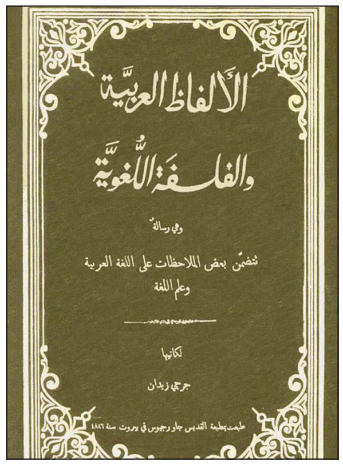

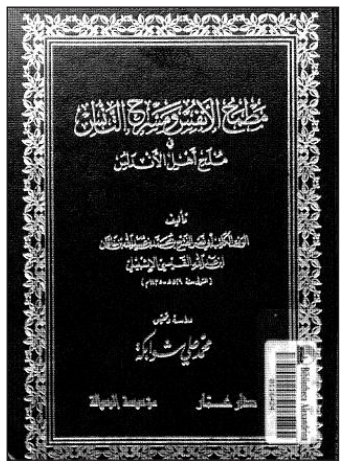

زيدان بحاثة كبير ذو جلد شديد على التتبع والتنقيب، ومؤلف كثير الانتاج في الادب والاجتماع ومؤرخ ثقة نزيه ينظر الى الحقيقة بالعين المجردة ويصورها عارية من شوائب التحزب والتعصب، ولقد زاد المكتبة العربية ثروة غنية بما ضم اليها من مجموعة مؤلفاته القيمة، يدرك مبلغ عنائه فيما وضع والف بمراجعة اثاره، ويعرف فضله بما عاناه فيها من الاساليب الجديدة التي اتحف بها قراء العربية وكتابها، وان له الاثر المشكور في خدمة اللغة العربية والتاريخ العربي يوضع مالم يسبق اليه من تاليف تصنيف، ككتابه في الفلسفة اللغوية (وهو باكورة مؤلفاته وقد نقل الى التركية) بحث فيه عن نشوء اللغة العربية وتكونها فاستحسنه علماء المشرقيات واثنوا عليه، في اثر ذلك انتخب عضوا عاملا في المجمع الاسوي الملكي بايطاليا (١٨٨٧) وهذا الكتاب هو الذي اوحى اليه بـ (تاريخ اللغة العربية) الذي تناول فيه اللغة بعد تكونها فبحث فيما طرأ عليها من التغيير والتحوير بسبب التجدد والدثور. فلزيدان فضل السبق في هذين وان جاءت بحوثه فيهما دون حد الاستيعاب لكل ما يتعلق بلغة العرب من هذه الناحية، وكتابه في تاريخ اللغة العربية هو الذي جره الى وضع مؤلفه في تاريخ آدابها (يقع في اربعة اجزاء وقد اختصر) وهو اثر جليل قال فيه المفصل – لنفر من ائمة الادب بمصر اليوم – ".. والواقع انه مرجع قيم للمشتغلين بتاريخ الاداب العربية" والحق ان تاريخ الاداب العربية لزيدان كان قدوة ومنهاجا للذين ارخو الادب العربي من عهده، فقد صاروا على نهجه واتخذوا طريقه في تبويب كتبهم وتنظيم فصولها وتناول الادب العربي بحسب العصور السياسية، الى غير ذلك مما استرشدوا فيه بكتاب زيدان الذي سبق (الوسيط) بخمس سنوات، ومع ان الوسيط جاء متأخرا من زيدان يرى الاستاذ الزيات ان الوسيط هو الذي مهد الطريق واثار السبيل لمؤرخي الادب العربي وانه كان بمثابة الاصل الذي قامت عليه الكتابة في الاداب العربية.

قد يكون الاستاذ مصيبا في شيء من رأيه لكن السبق في ذلك لزيدان الذي كان مرجعا الوسيط نفسه، نعم ان الذين ارخوا الادب العربي من بعده جاءت مؤلفاتهم ادق وافضل بما فيها من دراسات تحليلية وبما اقتضاه اختلاف الزمان مع تهذيب وتبين، وما في الكتاب من هفوات يسيرة شيء لا تؤاخذ عليه الواضع لانه جاء في مؤلفه كمؤسس فلا مناص فيه مما يعتد نقصا او غموضا.

طلع زيدان على الناس بكتابه في تاريخ الادب العربي فاعجب به العلماء والادباء واكدوه. وتناولوه نقدا تفريضا فكان لكل منهم رغبة خاصة تتعلق بقضايا الادب واثار العرب وكان من المستحيل تحقيق تلك الرغبات جميعها لانبعاثها عن مذاهب ومشارب متباينة متخلفة، على ان المؤلف له اجتهاده وله رأيه وقد تعرض له الفكرة لا يستطيع لها تدوينا لمخلفتها اهواء جماعة من الناس، وكان من جملة اولئك الناقدين الدكتور محمد حسين هيكل فقد اخذ على زيدان انه لم يعن بنقد ولا تحليل لتلك الظاهرة الجديدة في حياة العرب وادب العرب عند انتقالهم من الجاهلية الى الاسلام، وانه اغفل اشياء كان يجب ان يعني بها اشد عناية لانها من تاريخ ادب العرب في الصميم، ولعلها اهم فقرة من ذلك التاريخ. لكن الغريب من الدكتور انه اعفى نفسه مما كان يؤاخذ عليه غيره. اذ الف بعد ذلك كتابا اهمل فيه تلك النقاط التي كان احصاها على زيدان فلم يتناولها بالبسط والتحليل والنقد والتعليل، مع ان ذلك له المساس كله بموضوع كتابه. فما بال قلمه للناقد لم يطاوعه ليعبر عن عقله لا عن هوى السياسة وميل العاطفة؟!

نعود الى الحديث عن زيدان فقد نشأ هذا الرجل العصامي فقيرا عاجزا عن شراء كتب الدراسة حتى اضطر بعد انهائه المدرسة الابتدائية ان ينضم الى ابيه يساعده في اعماله لضيق ذات يده غير انه لم ينقطع عن الدراسة الخصوصية فجد فيها وهو صادق الطلب "للعلم" صحيح الرغبة فيه حتى فاز منه بالسهم الاوفى فهو من هذه الناحية خير مثل يحتذيه اولئك الذين تنزع بهم نفوسهم الى المعارف والاداب والثقافات العامة ثم تقعد بهم الظروف القاسية عن الاختلاف الى معاهد العلم، ويخونهم الجد العاثر فلا يكون لهم محيد عن عمل يزاولونه حصولا على لغة تقيهم شر الفاقة، لا مثل هؤلاء اسوة حسنة في زيدان الذي مازال (وهو مكدود) دائبا في سيرها الحثيث حتى كان الشخصية اللامعة وكان الرجل الخالد انقطع زيدان يدرس تاريخ العرب والمسلمين بتعمق وامعان ويوفق فيه بين ماخذه ومصادره حتى اصبح العالم الاخصائي الفذ في التاريخ الاسلامي، فكانت له فيه آثار وبحوث قيمة ابانت عن مظاهر المدنية العربية وعبدت طريق التاليف والتدوين لمن جاء بعده من مؤرخي العرب يرى له ذلك من عالج هذا الفن بالدرس والتأليف.

ويشهد له بالسبق في هذه الحلبة مؤلفه في تاريخ التمدن الاسلامي، وعر موضوع طريف جديد لكنه شاق وهو المسالك عزيز المنال كابد فيه المؤلف العنت الشديد باكثاره من المصادر الشرقية والغربية وقد تكرر طبع هذا الاثر النفيس ونقل الى عدة لغات اجنبية كالتركية والفارسية والهندية والانكليزية والفرنسية والروسية، كذلك سلسلة رواياته الاسلامية وهي من اشهر ما جادت به براعته السيالة فقد هم نشرها وعظم اقبال جماهير الناس عليها اقبالا ادى الى تكرر طبعها ونقلها الى لغات اجنبية عديدة من شرقية وغربية. تناول فيها تاريخ الاسلام منذ نشأته الى عهد الدستور العثماني اي في نحو اربعة عشر قرنا فجاء منه على الجزء العظيم مصورا باسلوب لذيذ ممتع تتخلله حكم يتزعم من مشاهد التاريخ ملاحظة اخلاق الانسان في احواله واطواره. وهو الى ذلك فصيح العبارة بديع الوصف يعطيك من رواياته مرآة صادقة لصور الماضي واحداث التاريخ. والحق انه في تلكم الروايات محيي القصة والباعث للناس على الكتابة فيها والإحتفال بها بعد ان كان فن القصص مرموقاً بعين المهانة والصغار، فبحق يسند اليه مؤرخوا الادب العربي زعامة الفن القصصي في الشرق.

م. الهدف ١٩٣٩

جرجي زيـدان بيـن المنصفيـن والمغرضين

عبد اللطيف يونس / صحفي راحل

وافتني رسالة من صاحب جريدة (الهدف) البغدادية ومديرها الفاضلين تنطوي على رغبة نبيلة في اعداد كلمة للعدد الخاص الذي سيصدرانه عن فقيد الادب المرحوم جرجي زيدان بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على وفاته.
وكنت اريد ان اشكرهما على جهودهما في سبيل الادب وتفانيهما في خدمة القائمين به والعاملين له، لولا ان علمت ان مثل هذا الشكر قد يسيء الى الواجب الاسمى الذي نذرا نفسيهما له، ووقفا جهودهما عليه ففي سبيل الواجب المقدس، وفي ذمة التاريخ ما يقومان به من عمل نبيل.

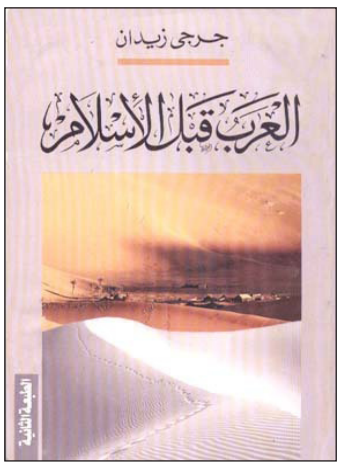

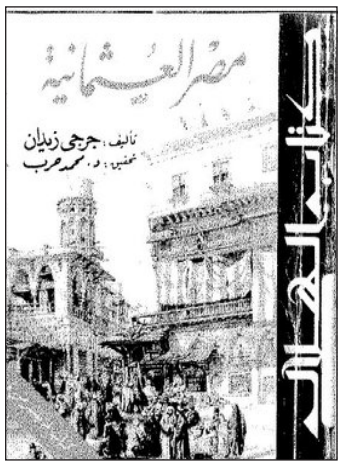

وماذا يستطيع كاتب ان يستوعب في مقالة ضيقة الصفحات معدودة السطور، من حياة شخصية حافلة بالمجد الادبي الرائع، زاخرة بالفن الخالد، في كل ومضة من ومضاتها نور مشرق وضاء، وبكل خلجة من خلجاتها حياة مترهة بالسحر والجمال، وفي كل سكنة من سكناتها جلال مهيب، ووقار رزين.

لقد صور جرجي زيدان الحياة في جميع مراحلها او اطوارها، في لقة سلسة الانشاء، قوية التركيب، رائعة الوصف، سهلة التعبير، وتغلغل الى قلوب ابنائها يصور ما تحويه من حب ورحمة او من رياء ونفاق، واشرف على الماضي من كوة الحاضر، يستعرض مواكب ابنائه السائرة في طريق الخلود، ويسبر غور نفوسهم فيطلع على الاحساس الخفي الكامن في اعماقها، ثم يعرضه عليك كما تعرض الرسوم والمشاهد على الشاشة البيضاء، فنحس كأنك تسمع خفقات قلوبهم المتألمة ورهشات نفوسهم المضطربة، وهمسات ضمائرهم القلقة المعذبة.

فتحرق اهاتهم اللاهبة خديك، وتدري اصوات بؤسهم في اذنيك، ويجلجل في اسماعك نشيجهم وزفيرهم، فتحزن لحزنهم، وتأسو لبأسائهم، وتغيب في شعورك وانت تتصفح هذه الصور في كلمات وكأن في كل واحدة منها منظر انسان يحس ويتألم وفي كل سطر منها مشاهد حية تنظرها بعينيك او تلمسها بيديك!

فسبحان المصور المبدع..

لقد صور جرجي زيدان كل هذا! فهل يستطيع مقال واحد ان يفيه حقه من المدح والاطراء، او من المدرسة والاستقراء، اللهم لا لقد قرأت لكثير من المؤرخين، وقرأت كثيرا عنهم، فما رأيت مؤرخا انزه من جرجي زيدان، ولا اصدق منه رواية، ولا اكثر اتزانا.

يفرض في المؤلف قبل كل شيء ان يكون منزها عن الغايات، مجردا عن الاغراض، بعيدا عن الطائفية والعنصرية، يكتب للادب المجرد، لا في سبيل غاية بغيضة، او مقصد حزبي مسيء!

ولكن هل راعى اكثر المؤلفين هذه القاعدة وتقيدوا بها؟ اننا نرى الكثيرين منهم قد خرجوا عليها في سبيل غاياتهم ومقاصدهم واهوائهم وسجل التاريخ لهم اسامتهم للحقيقة في كثير من المناحي، لا يراعون في ذلك حرمة، ولا يرهبون وعيداً!

واكثر هؤلاء يكتب للزمن الذي يعيش فيه انتصارا لفئة معينة من الناس! وقد فاته ان الكتاب متى ما خرج من بين يدي مؤلفه اصبح ملك الاجيال كلها، ولم تعد له سلطة عليه الا كواحد من الناس.

وقد يدرك المؤلف اخيرا بعد ان تضمحل غايته، ويتلاشى مقصده، الجناية التي اقدم عليها، واقترفتها يداه، فيعمد الى تلافي خطأه، ويعيد طبع كتابه بعد ان يدخل عليه كثيرا من التحويل والتبديل، مما يتعارض مع كلامه السابق، فيكون قد ضلل افكار الناس مرتين اثنتين!

ومن المؤرخين من يكتب في سبيل حزبية ضيقة او طائفية بغيضة، يلازمه التعصب لها حتى الموت، وتكون كتابته عن عقيدة وايمان – لابما ينقله الى الناس من روايات يرتاح ضميره لصدق مصدرها، وصحة رواياتها، بل بما يدخل عليها من التغيير والتحوير، اشباط لغايته وارضا لطائفيته، وهؤلاء لا يتلون خطراً عن اولئك الذين يبيعون ضمائرهم الى الناس، يتاجرون بها كما يتاجر العطاء بالسلع!

قرأت لابن تميمة المؤرخ المشهور ان سورة "الدهر" – هل اتاك – "مكية" ولا يتعب ابن تيمية بايراد الحجج والاسانيد لاثبات قوله هذا – وليس يتوفر له ذلك مهما اجتهد وبحث ودقق – بل يذكر بلغة الواثق من قوله المطمئن لصدق ما ينقله من حديث، ان المسلمين يجمعون على هذا القول! وراجعنا شروح القرآن وتفاسيره وكثيرا من كتب المؤرخين فما رأينا ولاسمعنا ان مؤرخا واحدا من الذين تقدموا "ابن تيمية" او تاخروه جرا على القول ان سورة الدهر "مكية" بل المؤرخون باسرهم يجمعون على انها "مدنية" ومع ذلك فان "ابن تيمية" يزعم ان المسلمين يجمعون على رأيه! فتأمل!

واما قصد "ابن تيمية" من هذا القول فهو لايخفى على احد من متتبعي اخبار هذا المؤرخ وبعض مؤرخي الاسلام الذين يصبغون كتبهم بصيغة الطائفية ويستوحون افكارهم ومبادءهم منها!!

مات جرجي زيدان منذ ٢٥ سنة فانطوت بموته صفحة مجيدة من الذكاء والعبقرية وانفتح امام الكتاب والنقدة مجال رحب للبحث عن حياة المؤلف الكبير، وتناول عشرات الكتب – التي اتحف بها خزانة الادب العربي – بشتى البحوث والنقود، ولكن ناقدا واحدا من المشهود لهم بالنزاهة والتجرد التام، وكاتبا فردا من الموسومين بالنبل والاخلاص، لم يستطع القول ان جرجي زيدان كان مغرضا في كتابته، طائفيا في بحوثه القيمة، بل الكل يجمعون على احترام الحافز النبيل الذي كان يحفزه للكتابة في شتى النواحي العلمية والادبية وفي سبل الادب المجرد النزيه، حتى ان اكثر هؤلاء النقدة اطلقوا عليه – وهو المسيحي – اسم "مؤرخ الاسلام".

ولايهولن الناس كثرة الانتقادات التي كان يوجهها الى المرحوم "جرجي زيدان" نفر من الادباء في حياته، وبعد وفاته، والتي حمل لواءها الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ردحا من الزمن، فان الذي يطلع على الحياة النقدية في مصر منذ القرن التاسع عشر حتى يوم الناس هذا، يعلم ان المصريين لايستطيعون العيش الا في جو انتقادي صاخب وانهم يبحثون عن السيئة في شخصية منقودهم حتى يجدوها، فيبنون عليها العلالي والقصور! واذا لم يجدوا هذه السيئة عمدوا الى انفسهم يخلقون منها السيئات، ويلحقونها بذلك، لتشويه اسمه! وتعكير سمعته!!

والذي يدلك على ضعف العقلية في هذا الشرق الجيل ذهاب بعض "المعممين" في مصر الى انه من الحرام النص (!؟) ان يتناول الكتابةعن تاريخ الاسلام رجل مسيحي من احفاد الغينيقيين العرب في لبنان! مع ان المرحوم جرجي زيدان – بشهادة خصومه انفسهم – من انزه المؤرخين الذين كتبوا عن الاسلام، ومن اخلصهم للحقيقة وللتاريخ، من يوم بعث الحركة الاسلامية في صدر محمد صلوات الله عليه الى عصرنا هذا.

ولكن ذلك القول لا يحط كثيرا ولا قليلا من قدر جرجي زيدان، ولا يضعف من قيمة تراثه الادبي المجيد، بل هو على عكس ذلك يعزز من مكانته، ويزيد من قيمته، ويضعف من قدر اولئك الذين يريدون ان يسموا هذا البقعة من الارض بسمة الطائفية البغيضة والتعصب الذميم. والذين تعميمهم للغاية وللغرض عن تلمس الحقيقة الراهنة يذهبون في اختلاق الاراجيف والاقاويل حتى التي يتنافى منها مع الكياسة والذوق، ولا يتورعون عن اتباع شتى الطرق للنيل من كرامة محسودهم! ومبغوضهم! وهل داء بعض رجال العربية الا هذا؟؟!!

قرات يوما فرنارده غور انه يتسامح مع نقاده في كل شيء الا الذي يخلقونه من انفسهم، ويصمونه به، ثم يعمدون للاساءة اليه بواسطته!

وهذا ما ضاق به ذرعا احد كتاب الفرنجية – اظنه جان فيرمان – فعمد الى مقال نشره في الصحف يذكر فيه خطيئاته الادبية، وسقطاته اللغوية، التي وقعت في مؤلفاته تنبه اليها اخيرا بنتيجة تطور فكره ورقي عقليته، ويرجو النقاد ان يهاجموه بواسطتها – ماداموا حريصين على مواجهته – ضنا بكرامة النقد ولكي لا يذهب بهم الحسد، والكراهية، وحب الظهور، الى اختلاق اشياء لو اكتشفها بنفسه ووجدها صحيحة لقتل نفسه من اجلها.

وهكذا نرى ان حب الظهور والحسد والكراهية يدفع الكثير من الناس الى اختلاق اشياء ما انزل بها الله من سلطان للنيل من كرامة منقودهم، هذا ما عاناه مؤسس الهلال الاغر من فئة غير قليلة من النقاد معروفة في الاوساط بالتحامل والتغرض! غير ان اكثر هؤلاء اذا استثنينا رجال الدين كانوا مجمعين على القول باخلاصه للادب، وصدقه ونزاهته في كل ما كتبه التاريخ.

والذي يشجيك، ويضحك بالوقت نفسه، ان جرجي زيدان لم ترض كتابته المسيحيين! ولا بعض المسلمين! فوصمه الاولون بالكفر والزندقة لانه نشر فضائل الاسلام! وانكر عليه الاخرون – وهو المسيحي – اقدامه على الكتابة عن الدين الحنيف! واتهموه بالدس على الاسلام!! ولكن هذا كله لم يثن من عزمه، ولم يحل بينه وبين اكمال خطته واتمام غايته.

وليس هذا نصيب جرجي زيدان وحده، فان تاريخ الادب حافل بذكر ما لقبه الادباء من العنت والاضطهاد في مختلف العصور.

او لم يمت (ابو العلاء المعري) تحت تأثير عواصف التهم التي وجهها اليه (داعي الدعاة) هذا اذا لم تصدق رواية بعض المؤرخين من انه دس له السم فمات به؟

او لم يقض (دانتي) مؤلف الكوميديا الالهية، وشاعر الطلبات الاكبر في منفاه، او لم يصرع (بشاربن برد) تحت سياط المهدي؟ والمتنبي بسيف فاتك بن شجاع؟ وابن الرومي بشراب مسموم قدمه اليه وزير المعتضد ابن الحسين القاسم بن عبيد الله؟!

وفي هذا العصر: الا ترى كثيرا من الناس ينتقدون "بدوي الجبل"؟ ويشتمون "بشارة الخوري"؟ ويتهمون الرصافي؟ ويرجمون خليل مطران؟؟؟ كل ذلك في سبيل انانية بغيضة عمياء، ومن اجل مقاصد لا شرف فيها ولا نبل ولا اخلاق!

هذا هو مصير الادب والادباء منذ انبثاق فجر النهضة الادبية الى اليوم، ومن رأي "طاغور" شاعر الهند الا كبر ان الانتقاد ضروري لكل اديب، فهو يلهب طموحه، ويذكي نار عبقريته، ويكثر من انتباهه ويقظته، ويشدد من اجتهاده في النفوق والارتقاء.

وهذا الرأي يعاكسه اكثر كتاب هذا العصر ويعتقدون انه يأتي بعكس ذلك تماماً. ولكننا نسلم به ونريد ان نفهم: ايقصد طاغور من ضرورة وجود النقد في الادب خلق اشياء لا صحة لها، واكاذيب لم ينزل بها الله من سلطان، اننا نؤكد ان طاغور لا يريد ان يشيع بين الناس الا الانتقاد الصادق النزيه المبني على اساس الحقيقة والاخلاص.

وشيئا ثانيا هو ان طاغور لم يجز انتقاد الموتى والتهجم على اثارهم الادبية.

فما بال ادبائنا يسرهم ان يتهجموا على الاموات ويعمدوا الى تراثهم الادبي يهشمونه من بعدهم تهشيما، وقد كانوا في زمانهم ساكنون لا يبدون ولايعيدون؟!

هذا ما فعله كثير من الكتاب بعد وفاة المرحوم جرجي زيدان والرافعي وسواهما!

ولكن جرجي وزميله وامثالهما من الخالدين قد ارتفعوا على مناكب الادب الى اعلى ذروات المجد والفخار، يتطلعون الى الاجيال تمر مواكبها من تحتهم وهم في خلودهم هازئين بالمفترين.

جرجي زيــدان.. خادم القضيــة الوطنية ورجل النبوغ

فاضل قاسم راجي
رئيس تحرير صحيفة فتاة العراق

هاهو جرجي زيدان وانا اتصوره يوم دخل مصر وهو لايملك من المال – الذي حصل عليه عن طريق الافتراض – ما يكفي لاعاشته عيشة بسيطة مدة تقل عن الشهر الواحد.. وها انذ اتصوره وانا امعن في التفكير بتصوره وتمعن في نفسي الحيرة بأمره حين بدأ بتوزيع مجهوده بين ما يمكنه من الحصول على ما يقنات به انذاك – وبين ما يحصل بواسطته على هذه الثروة العلمية والادبية والتاريخية العظيمة التي يشغل فيها التاريخ في يومنها هذا كعظيم من عظماء جيله العابرين. ومن هنا يستطيع المدرك ان يحكم على عبقرية جرجي زيدان الذي استطاع ان يجمع بين النقيضين وان يبلغ القمة من النجاح في الناحيتين. وعندي ان من يقول بسهولة هذا الامر فقد ضل واخطأ، ذلك لأن الذي يحتاج مجهوده ليحصل بواسطته على ما يقوم به اود الحياة من الناحية المادية يستحيل عليه ان يستفيد من بقية ذلك المجهود عشر معشار ما استفاد منه جرجي زيدان من الناحية المعنوية والعكس بالعكس وهذا ما يجعلنا ان نشخص ناحية النبوغ والعبقرية في هذا الرجل الفذ منذ بدأ حياته او منذ تاريخ هذا المجهود في الحياة. واذا اظفنا الى جانب هذه الميزة كونه خريج مدرسة الحياة اكثر منه خريج المدارس العالية محلى لنا هذا النبوغ المقرون بالعصامية التي كانت الكل في الكل في حيازته على مكانته العظيمة وصيته الذائع في الاوساط العلمية وفي حلبة الادب وميادين التفكير الصائب الخصيب.

ان انا اعجب بموهبة من مواهب هذا العبقري الفذ او ان استغرب غيري – من غير العصاميين – مما جمع من متناقضات فانما اعجابي به كبير بالموهبة المبكرة واريد بها موهبة النبوغ التي جعلته ان يكون لنفسه الاستعداد الكافي ليكون جرجي زيدان – الذي تكتب في تمجيده وتعظيمه الان – مع كل ما وضفت لك من وجود الموانع التي تعيق غيره من بني الانسان. اما ان يكون الانسان عظيما مع توفر الاسباب المساعدة للعظمة – بخلاف جرجي – فليس ذلك ما يحمل اي احد على الاستغراب لان من توفرت اسباب نجاحه لقي فلاحه هذه ناحية مهمة تكشف لنا نبوغ هذا الرجل وعبقريته اما خدمته للقضية العربية فلجرجي زيدان حسنة قويمة كبرى سجلها لها التاريخ وستزداد اهمية هذه الحسنة وقيمتها كل ما تقادم يوم وفاته وكل ما قويت الدعوة للقضية العربية وتقربت من هدفها في تكوين الدنيا العربية الكبرى.

ذلك لانه كان من المبشرين الموفقين في تنبيه شعور الشباب العربي وتذكيره بامجاد عروبته في زمن لم يدرس فيه التاريخ العربي في المدارس الرسمية بل وليس لدى الشباب العربي ما يذكره ويتحدث به في موضوع التاريخ غير شجاعة وصرامة جنيكزخان والوهبة وقدسية آل عثمان.

لا ازال اذكر جيدا بعدتخرجي من المدرسة الابتدائية التركية – وانا لم اقرأ كتاباً باللغة العربية وفيه ذكر للعرب – بأن اول كتاب قرأته في هذه اللغة وفيه ذكر لتاريخ العرب وامجادهم هو رواية "فتان غسان" من مجموعة روايات جرجي زيدان. ويشهد الله بان لهذا الجزء كل الفضل في توجيه ميولي لدراسة لغة اجدادي والتعرف على تاريخ امتي وقوميتي التي صرت اعتز بها ويتعاظم اعتزازي بها كلما ازددت اطلاعا وتمعنا في التاريخ.

وما من شك في انني واحد من عشرات الوف اولئك الشباب الذين يعود الفضل في تنبيههم من غفلة ولا شادة بعروبتهم يوم كان ذكر العروبة من النابيات الى تلك السلسلة من رواياته التي لقن بها المعلمين والمتعلمين تاريخ الاجداد والامجاد بشكل روائي محبب وطرف، والى كتبه التاريخية الاخرى التي لها اليوم قيمتها الكبرى في عالم التاريخ.

وكم يكون تقدير المنصفين اذا تصوروا فعل هذه الروايات في نفوس الشباب في وقت نهب في رجالات العرب مناضلة في سبيل القضية العربية الامر الذي اعده ويعده غيري من المنصفين وان لمجموعة اثار جرجي زيدان من كتب التاريخ العربي وروايته اعظم الاثر في توسيع نطاق تلك الحركة وتأييدها من طبقة كبيرة من الشباب الذين لم يعرفوا عن قضيتهم يومذاك او التحسس بها لولا ما نفحته من روحهم تلك المجموعة الثمينة من كتبه التي قدمها للمكتبة العربية الكبرى وما تركته فيهم من الشعور الفياض اعتزازا بقوميتهم التاريخية.

اما انكبابه على دراسة اثار المستشرقين ورد عادية الممتدين منهم ونشر الثقافة العربية وحضارتها بين ابناء العرب فاني اعتقد اعتقادا جازما بان عمله هذا كان خدمة للعرب والاسلام في آن واحد رغم ما يذهب اليه البعض من انه تعرض لاحدى هتين الناحيتين بالتجريح. نعم انني من اولئك المؤمنين بان جرجي زيدان فيما المعت اليه من الخدمة الكبرى التي قدمها لناشئة جيله كان من خدام القضية العربية وفي طليعة الذين كونوا لهم العقيدة القومية، وهو بهذا الاعتبار تعده من المبشرين بالمبادئ الاسلامية التي هي من احكام القرآن العربي الكريم.

واخيرا فان جرجي زيدان ما كان الصحافي البارع والمفكر الكبير والمؤرخ القومي الجليل والروائي المبتكر مع وجود كل تلك الموانع الا لانه كان من ذوي الايمان والعقيدة في العمل وانه رجل من رجالات العبقرية والنبوغ.

جرجي زيدان نابغة من نوابغ هذا العصر

بقلم الاستاذ يوسف هرمز جمو
صاحب جريدة(صوت الشعب)

لازال بين الادباء و الكتاب على قيد الحياة من كان معاصرا لجرجي زيدان فاذا اراد احد منهم ان يكتب عنه فهو يستطيع ان يكتب عن ترجمة حياة هذا النابغة بكل سهولة ولكن اذا لحق به الذين عاصروه فماذا يبقى لنا ان نكتب عنه؟ لا شك اثاره الخالدة! ولهذا فاني اقتصر في الكتابة عن جرجي زيدان على الاثار التي تركها بعده. كتب جرجي زيدان سيرة حياته بقلمه فهو لذلك اصدق عن تبيان نشأته عن غيره ومن تلك الكتابات تستدل على ان جرجي زيدان نشأ عصامياً.

وقد انشأ مجلة الهلال وكان يحبر اهم المقالات التي كانت تنشر في هذه المجلة الشهرية فان انتشار المجلة المذكورة ونجاحه في تقدمها ورقيها واقبال العالم العربي على قرائتها، اكبر برهان على عبقرية الرجل.

جرجي زيدان اعظم من خدم تاريخ الاسلام في هذا العصر لو اردنا ان نضع رجال العصر الذين كتبوا للتاريخ في كفة الميزان لكان جرجي زيدان ارجحهم لانه خدم العرب والمسلمين اعظم خدمةم بوضع تاريخه القيم المجموع من مئات المجلدات وقد لا يتفق جميع الناس على ان جرجي زيدان خدم المسلمين خدمة جليلة في اعماله التي تعادل عمل مئات الكتاب والمؤرخين ولكن الحقيقة شيء والعواطف شيء آخر وقد اخذ البعض على جرجي زيدان شجونه كونه اورد في تاريخه المذكور مساوئ كثيرة خلال سير الحوادث التي جرت في تاريخ الاسلام. لكن المنصف وكل عاقل تجرد من التعصب النعيم يعظم جرجي زيدان على عمله هذا.

اذ ما فائدة التاريخ اذا طمست فيه الحقائق؟ وما الفرق بين مؤرخ يقتصر عمله على تسجيل الفضائل او تسجيل المفاخر لقوم من الاقوام، وبين القائمين بالدعاية (البرو بوغندا) الى دولهم اليوم؟

ان روايات جرجي زيدان المتسلسلة التي ضمت التاريخ الاسلام لهي من الاعمال الجبارة تجعل مدونها في صف عظماء التاريخ واذا نظرنا الى جرجي زيدان كرجل اجتماعي فانه من القلائل الذين عرفوا دخائل البشر ووصلوا الى مكنونات قلوبهم فان المقالات الاجتماعية من قلمه المنشورة في الهلال تشهد على مقدرته في معرفة شعور الناس والضرب على اوتار العواطف حتى اذا صور لك حالة من احوال حياة الفرد، قلت بداعة انه يلمس اوتار قلبك.

هذا الى كتب اخرى واعمال مضنية صدرت عن دماغ ذلك البطل الجبار الذي جال في ميدان الكفاح وانتصر في اكثر جولاته وخلاصة القول فان المرحوم جرجي زيدان رجل عبقري وركن من اركان النهضة ونجم لامع في سماء العالم العربي وفي اقطار الشرق الادنى تتضاءل بجنبيه انوار نجوم كثيرة، علينا ان نقدر هذا النابغة ونفتخر به كمؤرخ عظيم ادى للتاريخ خدمات جليلة تجعله في مصاف الذين خلدت اعمالهم شهرتهم الى مدى الاجيال.

ذكرى جرجي زيدان

بقلم الاستاذ ناجي سلمان العبيدي
صاحب جريدة الاتحاد

طلب الشاب النابه مدير جريدة الهدف ان اساهم في الاشتراك بالعدد الخاص الذي اعتزمت الجريدة على اصداره بمناسبة مرور ربع قرن على وفاة المرحوم جرجي زيدان الروائي المعروف واحد مؤسسي الصحافة العربية، والذي كانت له في تاريخ العرب جولات صادقات نشف طياتها عن نفسه الطموحة وقلبه الكبير.

ورغم انه كان من غير ابناء المسلمين فقد ابان في مؤلفاته الشيء الكثير من محاسنهم وفضائلهم مما حبب نفسه اليهم، وهل ادلك على ذلك هذه المجموعة الثمينة التي يشرف على اصدارا احد احفاد العرب والمسلمين غير حافل بالمصاريف والجهود التي يبذلها في سبيل هدف نبيل وغاية لا يرجو من ورائها جزاءاً ولا شكوراً.

بل هي اعتراف بفضل ذلك العربي وتقدير لما اداه من الخدمات لتاريخ امته العربية وادبها وقوميتها ونهضتها.

ورغم ان جميع البحوث الي تطرق اليها كاتبنا العبقري والتي تعد اليوم من المصادر الموثوقة فان الهفوات التي اوخذ عليها لا تقلل من اهمية جهوده ومؤلفاته القيمة. ومتى كان للبشر معصوما من الزلل والخطأ؟ وانه مهما اوتي من العلم والادب والعقل لا يمكن ان يعتصم من ارتكاب الاخطاء وعلى كل فأن الحسنات يذهبن للسيئات. والحكومة المصرية لو لم تقدر خدماته لما عينته استاذا للتاريخ في الجامعة المصرية غير انها امتنعت اخيراً وفصلته منها خشية النقولات.

هذه كلمة مختصرة عن حياة الكاتب العربي الشهير جرجي زيدان اتينا بها للمساهمة في احياء ذكراه والله من وراء القصد.

نابغة يبكي نابغة

بقلم جبران خليل جبران

لقد مات زيدان، همسات زيدان عظيم كحياته – جليل كاعماله

لقد رقدت تلك الفكرة الكبيرة وحول مضجعها تحوم الان سكينة توحي الهيبة والوقار وترتفع عن الحزن والبكاء.

لقد تملصت تلك الروح الطيبة ورحلت الى عالم لا نشعر به ولا ندركه وفي رحيلها عظة للباقين في قبضة الايام والليالي، قد تحرر ذلك الوجدان النبيل من متاعب العمل ومشاقه وصار لمتفاً برداء مجده الى حيث يتسامى العمل من المشاق والمتاعب، قد ذهب زيدان الى حيث لا تراه العين ولا تسمعه الاذن، ولكن زيدان اذا كان قد انتقل الى احدى السيارات السامجة في بحر اللانهاية فهو الان مشغول بنفع سكانها منهمك يجمع معارفها ماخوذ بجمال تاريخها منصب على درس لغاتها.

هذا هو زيدان – فكرة متحمسة لا ترتاح الا الى العمل، وروح ظامئة لا تنام الا على منكبي اليقضة وقاب كبير مفعم بالرقة والغيرة فاذا كانت تلك الفكرة لا تزال كائنة بكيان العقل العام، واذا كانت تلك الروح موجودة بوجود النواميس فهي الان تعمل مع النواميس واذا كان ذلك القلب باقيا ببقاء الله، فهو الان يلتهب بشعلة الله.

هذه هي حياة زيدان – ينبوع تدفق من صدر الوجود وصار نهرا صافيا يروي ما على جانبي الوادي من النبات والانصاب وها قد بلغ النهر شاطئ البحر فاي متطفل يا ترى يجسر ان يندبه او يرثيه.

او ليس الندب والنواح خليقين بالذين يقفون امام عرش الحياة ثم ينصرفون قبل ان يسكبوا في راحتيها قطرة من عرق جبينهم اودم قلوبهم. او لم يصرف زيدان ثلاثين سنة مذيبا قلبة مستقطرا جبينه وهل بيننا من لم يستق من تلك المجاري البلورية العذبة؟؟

اذا فمن شاء ان يكرم زيدان فليرفع نحو روحه ترنيمة الشكر وعرفان الجميل بدلا من ندبات الحزن والاسى.

من شاء ان يكرم زيدان فليطب قسمته من خزائن المعارف والمدارك التي جمعها زيدان وتركها ارصا للعالم العربي.

لا تعطوا الرجل الكبير بل خذوا منه وهكذا تكرمونه.

لا تعطوا زيدان نديا ورثاء بل خذوا من مواهبه وعطاياه وهكذا تخلدون ذكره.

جرجي زيدان مثال الرجل الصالح

للاستاذ توفيق السمعاني منشيء جريدة الزمان

صلتي بالمؤرخ والكاتب الكبير المرحوم جرجي زيدان ترجع الى عهد الصبا، فاني بعد ان تدرجت قليلا في القراءة العربية كان يلذ لوالدي كثيرا ان اقرأ له شيئاً من كتابي المدرسي وكان هذا الكتاب يحتوي حكما عربية فقد كنت اقرأ لوالدي مثلا من هذه الحكم (خير الكلام ما قل ودل، وخير البر عاجله، وفي العجلة الندامة، وفي التأني السلامة، ورب كلمة سببت حرباً، ورب آكلة حرمت اكلات) وغير ذلك من الحكم، وكان والدي بعد سماعه هذه الحكم يستزيدني من قراءتها وترد يدها وكانت نشوة الغبطة تتملكه بذلك، فكان يقول ان هذه الحكم والاقوال لا يمكن ان تصدر الا من العرب ولا تستطيع امة ان تجاريهم فيها واني مؤمن (بان الدنيا أولها عرب وتاليها عرب) وهكذا كان والدي يحبب الي تتبع التاريخ العربي ولم يكن لدينا اذ ذاك من المكاتب التي تستطيع ان تزودنا بالكتب التي تناسبنا في هذا الباب، ولما وصلت بدراستي الى ما يعادل الصف الخامس الابتدائي نجحت في الامتحان نجاحا تفوقت فيه على اقراني، فاقسم والدي بعد نجاحي ان يهدي الى كتاب "تاريخ العرب" مهما كلفه الامر، فاتصل باحد اصدقائه الفضلاء وكان ممن يعتد برأيهم، وطلب اليه ان يعينه على ايجاد كتاب للتاريخ العربي يكون هدية الي، فدله الصديق على روايات جرجي زيدان، فاشترى لي منها اجزاء، انكببت على قراءتها امامه بلذة وشوق عظيمين، وكانت ليالي الشتاء مساعدة لنا على مواصلة القراءة ساعات طويلة، فصلتي اذا بالمؤرخ العظيم جرجي زيدان تبتدئ من ذلك التاريخ بواسطة هذه الروايات ثم تقلبت على الظروف في الدراسة فكان ولعي شديداً باقتناء جميع ما ألفه مؤسس الهلال، من كتبه التاريخية والادبية والعلمية والاجتماعية واصبح لي الاستاذ والمرشد والصديق الروحي، واني مدين له بالشيء الكثير من ثقافتي وتوجيه افكاري وتربيتي، وعند اتصالي بجرجي زيدان من ناحية مؤلفاته كان لزاما على ان اطلع على ترجمة حياته، ومناحي اتجاهاته، فرسخ في ذهني حتى الان ان الرجل عصامي شق طريقه الى امجاد الحياة مجده واجتهاده، وانه من الافذاذ القلائل الذين يقفون حياتهم على العلم والفضل والادب وخير الناس ومنفعتهم وقد كان الرجل من ناحية اخرى مطبوعاً بطابع شرقي من حيث الخلق والعنعنات والتقاليد فجميع كتبه واثاره تدل دلالة واضحة على دفاعه عن التراث الروحي الشرقي وتمسكه به، والدعوة اليه، والمحافظة عليه، والسير على هداه، فالرجل في هذا الباب من المؤلفين المحافظين، الذين يعتقدون ان ثمرات الافكار وبنات العقول يجب ان تطبع دائماً بطابع المثل العليا والخير الذي يحددونه بحدودهم ومقاييسهم.

ان جرجي زيدان يصلح ان يكون مثالا صالحا لابناء الجيل في حياته وصباه وكهولته، ويستحق ان يكون في صفوف الرجال العظام الخالدين.

كيف عرفت جرجي زيدان ؟

عباس محمود العقاد

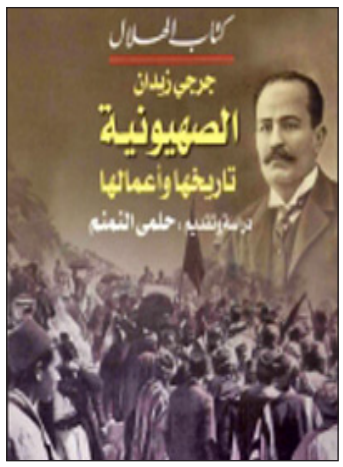

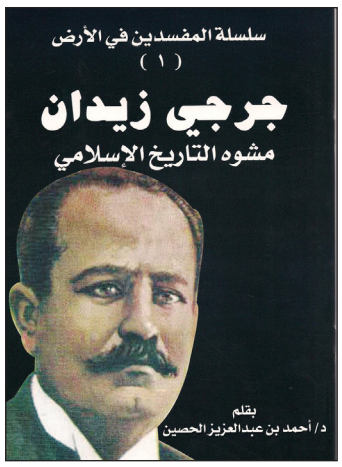

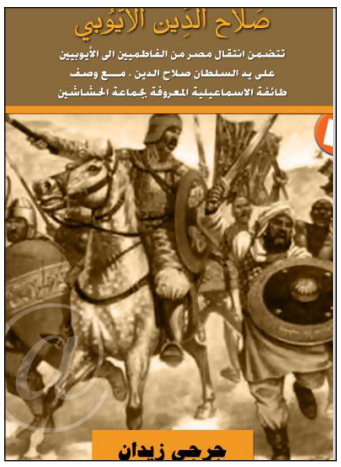

كنت حوالي سنة ١٩٠٥ اعمل في دواوين الاقاليم: قنا ثم الزقازيق.. وكنت ازور القاهرة مرة كل اسبوعين، او كل شهر، عندما كنت اعمل في الزقازيق.. ازورها لغرضين في وقت واحد: ان اشهد التمثيل بفرقة سلامة حجازي، وان ابحث عن الكتب التي لا تصل مع الباعة المتجولين الى الاقاليم.

وفي مرة من هذه المرات، قصدت الى حي الفجالة لاسال عن كتاب ما – اي كتاب – في فلسفة الجمال...

ولم اكن اعرف اسم الكتاب الذي ابحث عنه لانه – كما ظهر لي بعد ذلك – لم يوجد من قبل باللغة العربية، ولم يوجد الى اليوم. وانما كنت اتصفح فصول الاديب الخطيب الانجليزي ادمون بيرك عن الجليل والجميل، فخطر لي ان مثل هذا المبحث لابد ان يكون مطروقا باللغة العربية، وكان اعتقادي في كتابنا المحدثين منذ اواسط القرن التاسع عشر كاعتقاد اجدادنا في الاوائل اذ يقولون: ما ترك الاول شيئا للاخر.. فاذا كانت اللغة الانجليزية قد اشتملت على بحث في فلسفة الجليل والجميل، فاكبر الظن ان كتابنا المترجمين لم تفتهم ترجمة بحث من هذه البحوث.

ودخلت المكتبة فوجدت على شمال المنضدة المعدة لعرض الكتب رجلين يجلسان على كرسيين متجاورين: احدهما مطربش والاخر معمم، وطرق مسمعي اسم السيد توفيق وصهاريج اللؤلؤ، فسمعت الرجل المطربش يقول لمحادثة المعمم: ان السيد توفيق قد عاد بالنشر العربي خمسمائة سنة الى الوراء.

وسألت البائع: هل يوجد عندكم كتاب في فلسفة الجمال؟

قال مستغربا: فلسفة ماذا؟

فاعدت قولي بلهجة التوكيد: فلسفة الجمال! والتفت الرجل المطربش الى هذا الحوار، فنظر نظرة استفهام الى البائع، فاجابه هذا: – ان الافندي يسأل عن كتاب في فلسفة الجمال!

فتمهل الرجل المطربش، ثم قال: ما اظن كتابا في هذا الموضوع قد الف باللغة العربية، ثم سألني هل رأيت الكتاب المطلوب وعرفت اسمه، او اسم مؤلفه.

قلت: كلا.. ولكني رأيت شيئاً في بحث الجليل والجميل بالانجليزية فخطر لي ان البحث مطروق بلغتنا..

قال في تؤدة وهو يتبسم: ينبغي حقا، ولكنه لم يطرق في كتب مستقلة، ولا يزيد ما كتب عنه على بعض الاشارات المتفرقة في المجلات.

علمت من البائع ان الرجلين المتحادثين هما: جرجي زيدان صاحب الهلال، وابو بكر لطفي المنفلوطي اخو مصطفى لطفي المنفلوطي الكاتب المعروف.. وابو بكر نفسه كاتب لم يشتهر شهرة اخيه، وهو الذي كان يكتب بعد ذلك بسنوات في جمعية "مصر الفتاة" مقالات يحكي بها مقالات اخيه في المؤيد باسلوب كاسلوب "صهاريج اللؤلؤ" في التفخيم والاغراب.

ولا ازال اذكر صورة جرجي زيدان كما رأيته في ذلك اليوم رجل بسيط المظهر بعيدا من كل تكلف في زيه وجلسته وحديثه: يتكلم في الادب والبلاغة والاحاديث العامة باناة العالم المحقق، ولكن بسهولة المتحدث المفيد.. كانه يقول ما يقوله للتعليم دون ان يبدو عليه مظهر المدرس في حصة التدريس، ولا اذكر انني رأيت من ابناء عصره كاتبا بمثل شهرته ومكانته وبمثل هذه البساطة في المظهر والحركة والحديث، وقد رأيته بعد سنوات في داره وفي ساعات فراغه فلم اجد بين مظهره وهو بيد من الناس ومظهره وهو في المكتبة العامة اقل خلاف.

وقد طبعت اول ما طبعت من كتبي بمطبعة الهلال: وهما كتاب خلاصة اليومية، ثم رسالة الانسان الثاني عن المرأة وتاريخ طبعهما كما هو مكتوب عليهما سنة ١٩١٢. ولهذه المناسبة كنت ارى "جرجي زيدان" احيانا في مكتبة الهلال واحيانا اخرى في مطبعة الهلال، فان لم يكن في المطبعة ووجب سؤاله عن شأن من شئون الطبع فالدار التي كان يسكنها غير بعيدة من دار المطبعة، والاستئذان بالتليفون قبل الزيارة لم يكن من مالوفات ذلك الزمن، ولم يكن شيوع التليفون بين المكاتب والمنازل كشيوعه في هذه الايام، وانما كان طالب الزيارة يطرق الباب ويسأل عن صاحب الدار: اهو حاضر؟ وهل يمكن لقاؤه؟ وغالبا ما يجاب بغير حاجة الى موعد آخر محدود.

وكان العمل مقسما بين الاخوة الثلاثة: جوجي للمجلة ومتري للمطبعة: وابراهيم للمكتبة، وليس بين المطبعة ومسكن صاحب الهلال غير خطوات قلائل.. اما المكتبة فقد كانت بينها وبين المطبعة مسيرة دقائق معدودات..

واحسب ان الامر لم يدع الى مقابلتي اياه بداره اكثر من مرة واحدة سألته فيها عن رأيه في فلسفة التفاؤل والتشاؤم، وعلمت فيها عدا هذه المقابلة – عرضا – مبلغ عناية الرجل بالاطلاع على موضوعات العلوم من شتى المباحث والمطالب، وان لم تكن لزاما من موضوعات النشر بمجلة الهلال.

سألته: ايهما اصح واصوب، نظرة المتفائل او نظرة المتشائم؟

وربما كان السؤال: اي الفلسفتين اصدق، فلسفة التشاؤم او فلسفة التفاؤل؟

لست اذكر نص السؤال بكلماته، ولكنني اذكر موضوعه العام لانني كتبت مشغولا به في كل مطالعة وكل نظرة الى مسائل الادب والحياة، وفي كلا الكتابين اللذين طبعتهما بمطبعة الهلال اشارة الى الامامين المتشائمين: ابي العلا، وشوبنهور، وهما متلازمان في ذهن كل قارئ عربي يسمع بالتشاؤم في الثقافة الاوربية..

ففي خلاصة اليومية اقول بعنوان اقول والقائل: "انظر الى ما قيل لا الى من قال – قاعدة لا يصح اطلاقها في كل حالة – فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها، فان كلمة مثل قول المعري:

تعب كلها الحياة فما اع

جب الا من راغب في ازدياد

يؤخذ منها مالا يؤخذ مما تسمعه في كل حين بين عامة الناس من التذمر من الحياة وتعنى الخلاص منها.. فاننا نثق بان المعري مارس الامور الجوهرية في الحياة ودرس الشئون التي تكون منها عذبة او مرة، نكدا او رغدا، ولم يسير منها اولئك العامة الا ما يقع لهم من الامور التي لا تكفي للحكم على ماهية الحياة".

وفي رسالة الانسان الثاني بعنوان عصر المراة اقول: "وقفت على اراء في المراة للفيلسوف الالماني ارثر شوبنهور، فاعجبني حذق الرجل وجرأته على المجاهرة باقوال بعد قائلها في اوربا خلوا من التهذيب وسلامة الذوق، وان كنت اراه قد غلا في مذهبه الى حد ربما كان الدافع به اليه غلو المدنية العصرية في نظرها الى المراة ورعايتها اياها".

وقد سألت صاحب الهلال في هذا الموضوع لانني انتظرت ان اعرف الرأي الراجح من تجاربه كما اعرفه من اطلاعه ودرسه.. فسمعت منه الجواب المفيد عن الامرين قال لي في بساطة الرجل الذي يتحدث عن الجو او احاديث السمر العارض:

"اننا نعرف من التشاؤم مزاج صاحبه كما نعرف ذلك من التفاؤل، وقد يكون رأيهما واحدا في حقيقة من الحقائق العملية، او الفكرية، ولكن هذا يجعله سببا للرضا والاخر يجعله سببا للسخط على حسب مزاجه..

فليست المسألة معهما مسألة صحة او بطلان، ولكنها مسألة التأثر على حسب المزاج.

واحسب انه قال ايضا: اننا نترك البحث عن الاصح ونبحث عن الاصلح، فنرى ان التفاؤل اصلح للعمل في الحياة والنجاح فيها.. لانه اصلح لاحتمال الشدة واصلح للامل في النتيجة.

واحسن ما حسن عندي من سمت الرجل، ومن بساطته في حديثه، وبساطته في كتابته – انه لم يتخذ من قواعد العلم كتافا لعقله يحجز عليه ويحرجه احراج الموسوس الذي يكرر الواقعة مرة بعد مرة ليستوثق من صحتها وضبطها من جميع نواحيها واطرافها، ثم يرى انها عن العلم وكل ما عداها فليس من العلم في شيء.

وكذلك لم يتخذ من قواعد العلم كساء مزركشا يخشى عليه بالملابس ان تنكسر قصة فيه اذا طاوع عقله في الحركة بعض المطاوعة، ولم يتخشب مع الكساء المزركش، على سنة الوقار او على سنة الجمود..

فقد كان على اطلاع واسع في العلوم التجريبية كاطلاعه على بحوث التاريخ والاجتماع، ولكنه كان في سماحة الفكر وسهولة النظر بحيث يحس كما يفهم ان العقل قد يكون "علميا" وهو يخوض في كلام لم يقرؤه العلم ولم يقرر نقيضه كذاك.

ولهذا كان جرجي زيدان يبيح لفكره ان ينظر في "علم الفراسنة الحديث" وليس هو من العلوم التي فرغت التجربة من قوانينها كما فرغت – مثلا – من قوانين الحركة.

وكان يبيح لفكره ان ينظر في اصول اللغات واصول الكلمات واصول القواعد اللغوية دون ان يكون للعلم حكم قاطع في كل اصل من تلك الاصول.

فان لم يكن ما يقوله علما مصبوبا في قالبه الاخير، فهو – بلا شك – مادة علمية يجب ان تتهيأ لقالبها على شكل من الاشكال، ويمتنع علما ان تدرك بغير التفات اليها. فان عمل العلم في تشكيل المادة قبل ثباتها على شكل من الاشكال اوجب من صب القوالب على الشكل الاخير.. واوجب من ذلك الا يكون "الشكل الاخير" هذا هو كلمة الختام، وهو الحكم الذي لا يقبل النقض والتنقيح.

وقد كتب جرجي زيدان في كل مسألة من مسائل عصره الاجتماعية والفلسفية والادبية، فكان في كل منها بسيطا تلك البساطة التي عهدناها منه وهو يتكلم من اسلوب البكري او عن كتاب فلسفة الجمال، او عن فلسفة التفاؤل والتشاؤم، ولكنه قال فيها جميعا رأيه الذي لم يناقضه العلم ولم يات بما هو اثبت منه على اختلاف النظر في الامور.

ولسنا نحسب ان تناول الدراسات المختلفة بمثل هذه البساطة مسموح به لكل صاحب قلم مشتغل بالبحث والتفكير.

انما يسمح به – في غير حاجة الى الرخصة من احد – للعقل الذي يستبد ببساطته من مصدر واحد: وهو مصدر القوة التي هي اكبر من قيود البحث ومراسم الدراسة، وهي في طمأنينتها الى قدرتها على سبك القوالب وصهر امادة التي تملأها تعالج المادة في دور التشكيل كما تعالجها في قالبها الاخير.

عن كتاب (رجال عرفتهم)
القاهرة ١٩٦٣

جرجي زيدان..
أحلام الصبا المبكر ونار التنور

سـلـوى جـراح

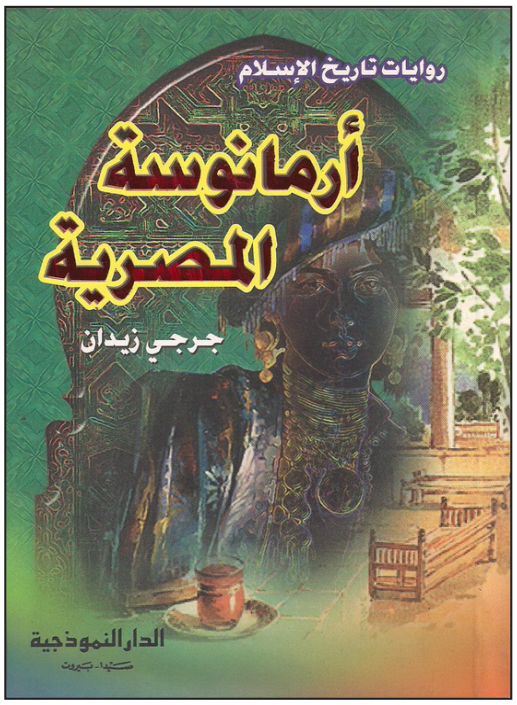

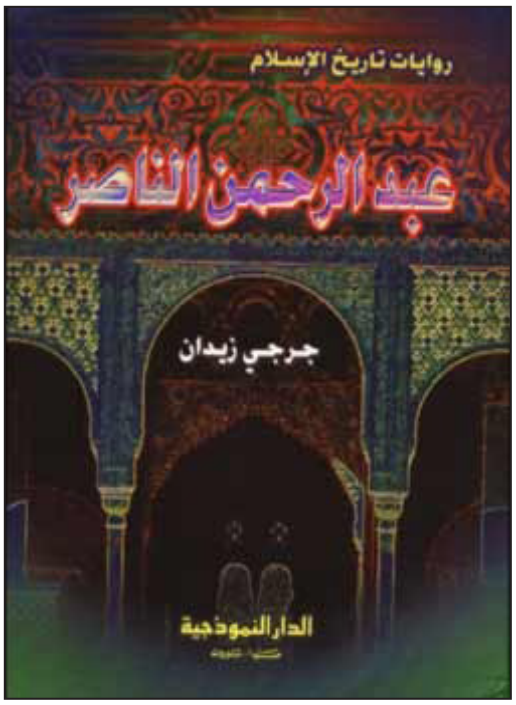

مرت في شهر كانون أول الماضي وبالتحديد في الرابع عشر منه الذكرى الخمسون بعد المئة لمولد الكاتب والباحث جرجي زيدان(١٨٦١-١٩١٤) وقد احتفل القائمون على معرض الكتاب في القاهرة الشهر الماضي بهذه المناسبة وقدمت بعض المحاضرات والدراسات حول جرجي زيدان، الرجل المتحضر المتطور الذي آمن بالنهضة العربية وبتحرر المرأة، وسبق بذلك قاسم امين، ومؤسس دار (الهلال) المصرية والمؤرخ الأكثر شهرة في دراساته التاريخية في الادب العربي، والحضارة الاسلامية وصاحب أشهر سلسلة روائية تعتمد الحدث التاريخي زمناً ومكاناً لوجود أبطاله وحبهم ومتاعبهم. روايات كنا نطلق عليها ونحن صغار ببساطة "روايات جرجي زيدان". وأعترف بأني كنت من عشاق هذه الروايات وجامعيها وأنا طالبة في مدرسة كركوك الثانوية للبنات في بداية الستينيات، وهل علي ان اضيف، في القرن الماضي؟ كانت مدرسة فيها كل صفوف المرحلة الثانوية من الصف الأول بعد إنهاء الدراسة الابتدائية وحتى الصف الخامس الثانوي الذي يدخل بعده الطالب الجامعة.

كنت أجمع بعض الفلوس من مصروف جيبي المتواضع، وأظن أنها كانت مئة وثمانين فلساً، مبلغ محترم في ذاك الزمن البعيد، يحتاج جمعه إلى مشقة وصبر، لأشتري رواية جديدة أراها على رف الكتب في مكتبة كركوك في شارع غير بعيد عن المدرسة كانوا يطلقون عليه إسم "الحي التجاري" ولم أكن أعرف ماهي أشكال التجارة التي تدار في ذلك الشارع الصغير. لكني كنت معنية تماماً بالاصدارات الجديدة لروايات جرجي زيدان في تلك المكتبة الصغيرة التي يديرها شاب تركماني وسيم ومؤدب. ولم يكن الذهاب للمكتبة إياها بالأمر السهل فقد كنا نعيش في مكان خارج حدود كركوك وبعيدا عن حدود منشآت النفط التي كان يعمل والدي فيها، بابا كركر و K١. كان أبي ذو النون جراح (رحمه الله) قد اشترى قطعة أرض قرب قرية صغيرة اسمها قزليار وأنشأ فيها مزرعة للدواجن ثم ابتنى داراً صغيرة لسكنانا. ولم يكن في المنطقة ماء جار ولا كهرباء فحفر بئراً ووضع لها مضخة واشترى مولدة كهربائية واستقرت الأسرة في مكان بعيد عن المدينة، ليس فيه سوى الدجاج وبقرة حلوب. وعليه كان هو يأخذنا للمدرسة ويعيدنا للبيت. أنا من ثانوية كركوك للبنات وشقيقتاي اللتان تصغرانني من مدرسة الراهبات الكلدان الابتدائية. وكانت مديرة المدرسة تعرف أني لا أخرج من المدرسة ساعة الغداء وعليه كان علي أن استاذنها قبل الخروج وأودع الفراشة "سورغل" بابتسامة كبيرة وأنا أقول لها: "المديرة سمحت لي بالخروج.

"فتاة غسان" كانت أول رواية قرأتها عن تاريخ الغساسنة والمناذرة، ثم "أرمانوسة المصرية" عن فتح مصر على يد عمر بن العاص و "عذراء قريش" وتوالت الروايات. لم تكن بالتسلسل التاريخي للأحداث فهذا "المملوك الشارد" وذاك "الحجاج بن يوسف" و"العباسة أخت الرشيد" و "فتاة القيروان" و "غادة كربلاء". كنت أقرأها بنهم وأحب ما فيها من شخصيات تاريخية، أتعاطف معها حتى أكاد أعرفها شخصيا وأتابع ما يجري لأبطال الرواية الذين ابتدعهم خيال المؤلف من قصص حب ومغامرات، وأتأمل صورة الغلاف حيث المملوك يقفز من فوق السور، وفتاة القيروان الجميلة، والعباسة التي ظلمها الرشيد وقتل حبيبها جعفر البرمكي. وتكررت زياراتي للمكتبة وبدأت الروايات تتجمع واكتشفت إنها ثلاث وعشرون رواية فازدادت رغبتي في قراءتها وصار صدور رواية جديدة أو وصولها إلى كركوك حدثاً مهماً في حياتي. كنت أقرأ التاريخ من دون أن يكون عندي وجهة نظر فيه ومن دون أحكام على الشخصيات التاريخية. الكبار كانوا يدلون بدلوهم عن بعض الشخصيات، "الحجاج رجل ظالم ظلم العراق وأهله، ومع ذلك مجّده جرجي زيدان" وأحياناً يعكسون فكرهم السياسي "جرجي زيدان لم ينصف العباسيين وانحاز للأمويين"، بل لقد سمعت أحد أصدقاء أبي، وكان رجلاً كثير القراءة، واسع الاطلاع، يقول: "جرجي زيدان ليس روائياً بمعنى الكلمة فشخصياته لا تتطور مع الاحداث ولا تتفاعل معها هو رجل مهتم بالتاريخ ودقيق في معلوماته التاريخية وهو يصطنع الرواية لتقديم الحقائق التاريخية". وجهة نظر، اكتشفت فيما بعد من سنوات، أن العديد من النقاد، يتفقون معها. فجرجي زيدان، كتب أولى رواياته وهي "المملوك الشارد"، بعد صدور مجلة (الهلال) عام ١٨٩٢، وحين وجد أن الرواية لقيت نجاحاً هائلاً، صار يتفرغ لكتابة رواياته في شهور الصيف حين تكون مجلة (الهلال) متوقفة عن الصدور. كان يتم رواية كل عام. بل يقال إن امتلاكه لدار (الهلال) لعب دوراً مهماً في نشر ما يكتب، خاصة رواياته.

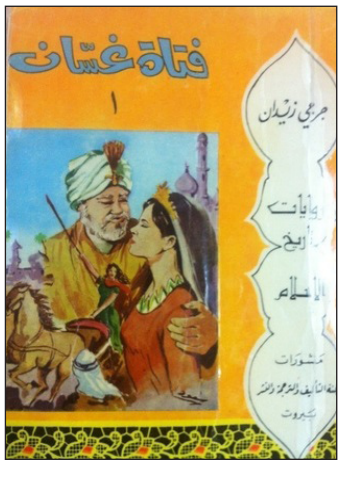

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان: ظهرت نتائج امتحاناتي وتبين أني مكملة في درسين، غضب أبي وكان رحمه الله غضوباً رغم طيبته ولطفه، ألقى علي محاضرة طويلة عن الاهمال والتخاذل والكسل، كنت أجلس في غرفتي مطأطئة الرأس - تعبير يستعملونه في الروايات القديمة - لمح روايات جرجي زيدان مصفوفة بأناقة على الرف (ثلاثة عشر كتاباً) جمعها وهو يقول: "هذه هي السبب متلهية بقصص الحب والكلام الفارغ". حملها وخرج من غرفتي ومن البيت وسار نحو التنور الذي كانت صبرية، زوجة أحد العاملين في المزرعة تخبز لنا فيه الخبز، صرخ فيها: "خذي اشعلي التنور".
احترقت الكتب وكل ما فيها من حكايات التاريخ والخيال. بكيت عليها طويلاً ونجحت في درسي "الاكمال" واعتذر أبي رحمه الله مرات عن حرق الكتب. قال لي مرة: "بابا انا كنت غلطان فحرق الكتاب جريمة لا يرتكبها إلا الطغاة لكني كنت اريدك ان تكوني دائماً متفوقة".

لا أدري كم حزنت على كتبي لكن فقدها جعلني أبحث في مكتبة البيت وأقرأ كل ما تقع عليه يدي من كتب أبي الذي صار يناقشني فيما أقرأ، خاصة بعد أن وجدت بين كتبه كتاب "تاريخ العرب قبل الاسلام" لجرجي زيدان. ومع السنين تابعت منشورات دار (الهلال) من روايات عربية ومترجمة ومن مجلات أسبوعية مثل (المصور) و (الكواكب) ومجلة (سمير) للأطفال، لكني لم أشتر بعدها ولا رواية من روايات جرجي زيدان ولم أنس ابداً صبرية وتنورها ورائحة خبزها الذي تشبع مرة بنكهة الكتب.

مدرستي الاولى

صفحة لم تنشر من مذكرات جرجي زيدان

قد استحسنا في افتتاح هذه السنة ان ننشر المقال الآتي المأخوذ من مذكرات المرحوم مؤسس الهلال لما فيه من الفكاهة والعبرة لا ريب ان قراءنا سيستلذون مطالعة هذه الاسطر.

المحرر

نشأت في صباي وانا ارى ولدي يخرج الى دكانه من الفجر ولا يعود الا نحو نصف الليل او قبيله وارى والدتي لا تهدأ لحظة من الصباح الى المساء لاتعرف الزيارات ولا الاحتفالات ولا المجتمعات حتى الدينية فانهالم تكن تذهب للصلاة في الكنيسة الا نادراً وانما همها تدبير بيتها وتربية اولادها – شببت على ذلك والفته ففرس في ذهني ان الانسان خلق ليشتغل وان الجلوس بلا عمل عيب كبير، بخلاف الابناء الذين يفتحون اعينه على والدين يقضون معظم ايامهم في اللهو وشم الهواء لا يهمهم الا ماذا ياكلون وماذا يشربون واذا فرغوا من الطعام عمدوا الى اللعب بالورق او غيره يقتلون به الوقت ولا يقدمون على العمل الا مكرهين يحسبون العمل عيباً او تعباً ولو عولوا عليه لكفاهم مؤونة المرض والضعف. فالابناء الذين يربون بين اولئك الاباء لا عجب اذا شبوا كسالى ومالوا الى الملاهي والرذائل.

وكان والدي اميا لكنه شعر بالحاجة الى الكتابة والقراءة لما فتح دكانه من زبائنه من يحاب شهريا او اسبوعيا فكثرت عنده الحسابات الجارية وكان في بادئ الرأي يقيد ذلك بيده ارقاما تعلمها ويترك اسم المدين القرينة ثم اوك التقييد الى من استخدمهم في دكانه. فجرته حاجته الى الكتابة ان يبدأ تعليمي القراءة باكراً فارسلني الى المدرسة وانا في الخامسة من عمري عند معلم اسمه الياس (او جرجس) شقيق قسيس عائلتنا الخوري موسى. وكان العلم الى ذلك الحين محوراً في رجال الكهنة او من ينتمي اليهم – ولا يتبادر الى الاذهان ان المعلم الياس كان فيلسوفا فانه لايكاد يحسن القراءة في الانجيل وكانت مدرسته عبارة عن قبو واسع في بناية ليعقوب ثابت بجوار مدسة اليسوعيين الان ثم صار هذا القبو فرناً بعد ذلك فكان اشبه بالزريبة منه بالمدرسة يجتمع فه ابناء اهل الحي من سن الرابعة الى العاشرة ذكورا واناثا يجلسون على حصير او حصر بسطها في ارض القبو ويجلس هو في صدر "القاعة" على طراحة وبين يديه صندوق صغير (بشتخته) يضع عليه كتابه وادواته واقلامه وجمع الى يمينه عدة قضبان تختلف طولا ودقة يستخدم كلا منهافي محله حسب من الولد وجنسه وبعده منه اقربه. واذكر اني كنت اتعلم عنده القراءة في المزامير وهو اول كتب القراءة يومئذ بعد الهجاء فكنا نحفظ المزمور من كثرة تكرار قراءته ونن لا فهمه. والقاعدة ان نقرأ عليه بصوت عال وهو ما يعبر عنه بالتسميع وربما قرأنا اثنان او ثلاثة معا والمعلم جالس الاربعاء وراء صندوقه ورأسه يكبو على صدره من النوم وغطيطه يالط اصواتنا وكلا اشتدالضجيج استغرق في النوم ولما تتعب رقبته من التدلي لقي رأسه عى الحائط ويرفع رجليه على الصندوق بحيث تواجه اخما وجوها ونحن لا نبالي ه. فاذا اخذ غفوة او حدث ما يوقظه فح عينيه وصاح ببرود "اسكتوا يا اولاد". فان لم يسكتو تحرك وتناول احد القضبان وضرب به اقرب الاولاد اليه وان لم يكن مذنبا فيصيح ويضحك الباقون منه فيتناول قضيباً اطول يضرب به سواه وقد يهم بالنهوض عند مسيس الحاجة ويقبض على المتمد من الاولاد ويلقيه على الارض ويستعين بخادم او غلام كبير على وضع القلقفي رجليه او وع رجليه في الفلق ثم يضربه على اخمصيه عشر ضربات او عشرين او اكثر او اقل على ما يتراءى له. والفلق اداة للقصاص اصبحنا في حاجة الى وصفها الا لانها زالت من المدن المتمدنة وهوعبارة عن عصا ثخينة قد شد اليها حبل يتصل طرفاه بطرفيها ويبى وسطه مرخيا فيدخلون قدمي الغلام بين الحبل والعصا ويديرون العصا فيلتف مازاد من الحبل عليها وتنحصر القدمان فيرفعونهما والغلام مستلق على ظهره فيمسك احد الحضور طرفي الفلق وياخذ المعلم بالمضرب على الاخمص بالقضيب.

لا اذكر اني ذقت طعم هذه الالة في المدرسة ليس لفضيلة في ولكنني كنت كثير الخجل شديد الخوف من العقاب احب الابتعاد عن اسباب الشحناء – كنت اشعر بهذا الخلق فيّ من طفولتي فكنت ابتعد عن كل ما يغضب المعلم او يبعثه على انهاري او ضربي. وقد قضيت في تلك المدرسة سنتين على ما اظن حتى قال لوالدي ان جرجي قد ختم درسه وصار يفك الحرف فسر والذي سرورا كثيرا ومعنى ختم القراءة اني صرت اقرأ بالمزامير جيدا وهذا صحيح كنت اقرأه جيدا لكنني لم اكن افهم ما اقرأ.

ولم يكن ذلك ليكفي مطمع والدي من تعليمي لاني لم اتعلم الكتابة والحساب بعد فلا اقدر ان اقد اسما واضع بجانبه ما يطلب منه. فنقلني من تلك المدرسة العامرة الى مدرسة كانت قد فتحت حديثا في روت تعرف بمدرسة الشوام نسبة الى اهل الشام لان الذين قاموا بانشائها جماعة من ادباء دمشق نزحوا منها الى بيروت على اثر المذابح التي حدثت سنة ١٨٦٠ وفي هذه المدرسة اخذت بعض مباديء احساب والنحو وابتدأت افهم وفتحت عيني. وكان لاساتذتها عناية كبيرة بالتعليم واشتهرت بالتربية على الخصوص لصرامة قوانينها ولا قوانين هناك غير ارادة الناظر او كبير المعلمين. وهو يومئذ المعلم ظاهر خير الله الشوبري وكان شديد اللهجة عظيم الهيبة واصله بنالا وفيه ذكاء فتعلم وتثقف على نفسه وصار معلما يراقب حسن وكان التلامذة يهابونه ويخافون صوته وكان يعلم الحساب والنحو وهو ماهر فيهما على الخصوص. وكان من معلمي النحو هناك ايضا معلم آخر اسمه الياس الخوري صار قاضيا بالكوره بعد ذلك ومعلم من بيت نوفل يسمى جروج راجحة وآخر من بيت عاصي اذكر اسمه. وكانت لهذه المدرسة شهرة حسنة لكن مدتها لم تطل كثيرا و اعلم السبب ولكني اذكر انها اقفلت وانا في نحو التاسعة من عمري (سنة ١٨٧٠) واسف الاهلون لتعطيلها.

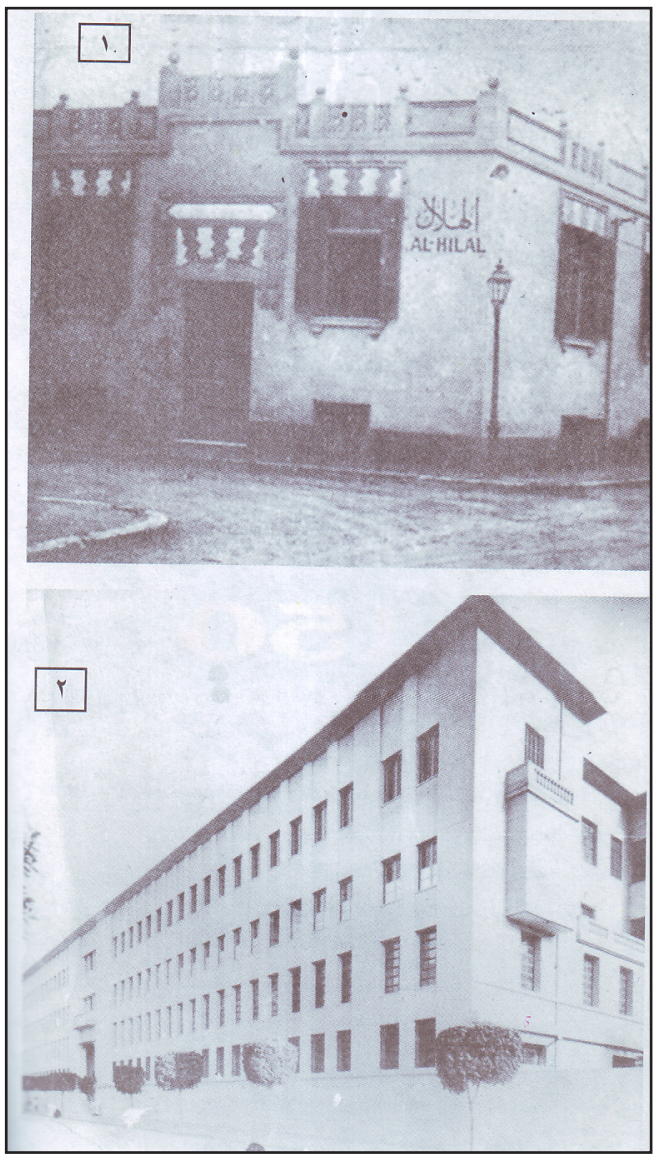

واشار اساتذة تلك المدرسة يومئذ على الاباء ان يرسلوا اولادهم الى مدرسة الثلاثة الاقمار للروم الارثوذكس وكان المعلم ظاهر قد تعين فيها ناظرا او معلماً فساعدت شهرته على انتقال اكثر ثلامذة مدرسة الشوام الى هناك. ثم ما لبث ان انشأ لنفسه مدرسة خصوصية انتقلت اليها. وكان المعلم ظاهر شديد العناية بتعليم التلامذة محافظة على شهرة مدرسته والنماسا لنجاحها وكانت تعلم اللغة والحساب والفرنسوية. قضيت في هذه المدرسة نحو سنتين وقد اخذت ألتذ بالعلم واتفهمه ولا هم لي غير الدرس. وقد خالفت سائر التلامذة من حيث اللعب لاني لم اكن ميالا للهو مطلقاً وكنت اعد ذلك نقصا في فلم اكن اطير الطيارة ولا العب بالطابة (الكورة) ولا بالكلة (البيلية) الا نادراً وقد اقف للفرجة او ارافق التلامذة اذا خرجوا لتطيير طيارة ضخمة كان يجتمع اليها ابناء الحي فاتبعهم وانا معجب بشجاعتهم او مهارتهم في صنع الطيارة او تطييرها.

مجلة الهلال
اول نوفمبر ١٩٢٣

روايات جرجي زيدان
بين التاريخ والتشويق الفني

ألف جرجي زيدان (١٨٦١- ١٩١٤ م) اثنتين و عشرين رواية تاريخية ذات أبعاد اجتماعية و إنسانية وعاطفية ضمن سلسلة تاريخ الإسلام من فترة ما قبل الإسلام مرورا بمرحلة صدر الإسلام و الدولتين: الأموية و العباسية وانتهاء بالعصر الحديث. وهذه الروايات بالترتيب هي: فتاة غسان وأرمانوسة المصرية وعذراء قريش و١٧ رمضان وغادة كربلاء والحجاج بن يوسف وفتح الأندلس وشارل وعبد الرحمن وأبو مسلم الخراساني والعباسة أخت الرشيد والأمين والمأمون وعروس فرغانة وأحمد بن طولون وعبد الرحمن الناصر وفتاة القيروان وصلاح الدين الأيوبي وشجرة الدر والانقلاب العثماني وأسير المتمهدي والمملوك الشارد واستبداد المماليك وجهاد المحبين.

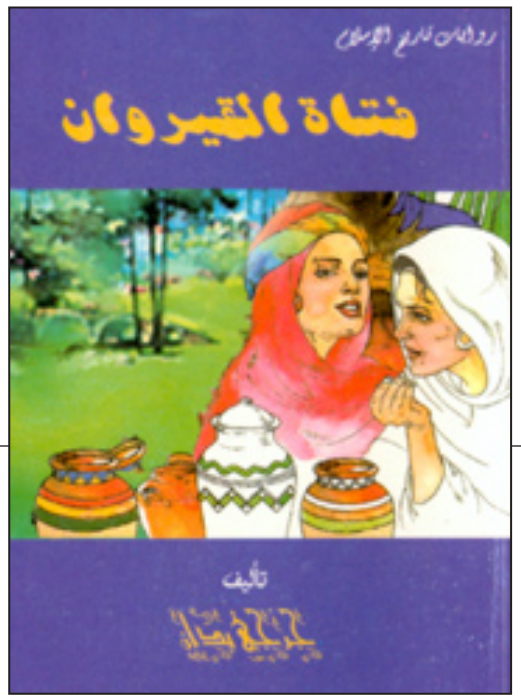

جميل حمادي

هذا، وتطفح روايات جرجي زيدان التاريخية بعقدتين أساسيتين: عقدة تاريخية وعقدة غرامية أو عقدة اجتماعية إنسانية في إطار صراع تاريخي سياسي وديني مذهبي إلى جانب صراع رومانسي أو اجتماعي. ويعني هذا أن روايات جرجي زيدان يتقاطع فيها جانبان: الجانب التاريخي والجانب القصصي، فالأول هو الأساس والهدف، والثاني هو عبارة عن وسيلة فنية ليس إلا. ويراد بهذه الروايات تشويق القراء وحثهم على قراءة تاريخ الإسلام عبر فتراته المختلفة لمعرفة الماضي في علاقته بالحاضر. والغرض من هذا الجمع بين التاريخي والسردي أو المزج بين الحقيقة والخيال أو بين التاريخ و الفن هو الإفادة والمتعة أو الجمع بين الوظيفة القصصية (وظيفة الترفيه والتسلية والإمتاع)؛ لذلك أدرج الدكتور عبد المحسن طه بدر روايات جرجي زيدان ضمن الرواية التعليمية ورواية التسلية و الترفيه.

وغالبا ما كان يتشدد زيدان في نقل المعلومات التاريخية، وكان لاينتقي سوى المعلومات القائمة على الصحة و اليقين، ذاكرا المراجع و المصادر حتى لو كانت شعبية أو غربية استشراقية مثلما هو الحال في رواية (شجرة الدر) حيث اعتمد على حسن المحاضرة للأسيوطي وسيرة الملوك وتاريخ ابن إياس و الهلال و تاريخ الفخري ومعجم ياقوت وتاريخ ابن جبير وتاريخ مصر الحديث لكاتب الرواية نفسه. وفي رواية (صلاح الدين الأيوبي) نجد تاريخ ابن الأثير وتاريخ التمدن الإسلامي وتاريخ المقريزي وكتاب الروضتين وابن خلكان وتاريخ الدولة السلجوقية وطبقات الأطباء وبور كهاردت (Burckhardt) وتاريخ ابن خلدون وتاريخ المقدسي ومعجم ابن ياقوت في رواية (فتاة القيروان). وهكذا تتنوع الإحالات التاريخية بين ما هو رسمي وشعبي واستشراقي وغربي.

إن الهدف من ذكر المصادر التاريخية هو خدمة التاريخ في حد ذاته وتطويعه جماليا عن طريق التوسل بالفن. إذ القصة هنا في خدمة التسلسل التاريخي وحلقات تاريخ الإسلام، على خلاف كتاب أوروبا الذين يجعلون التاريخ في خدمة الفن و السرد القصصي. و من ثم، فالتعليم هو الهدف الأول و الفن وسيلة ليس إلا. ويقول جرجي زيدان في هذا الصدد "قد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته والاستفادة منه، وخصوصا و أننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكما على الرواية، لا هي عليه، كما فعل بعض كتبة الإفرنج ومنهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية و إنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة فيجره ذلك إلى التساهل في سرد الحوادث بما يضل القراء.

و أما نحن فالعمدة في روايتنا على التاريخ و إنما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين. فتبقى الحوادث التاريخية على حالها وندمج في مجالها قصة غرامية تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصبح الاعتماد على ما يجيء في الروايات من حوادث التاريخ: مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص إلى ما تقتضيه من التوسع في الوصف، مما لا تأثير له على وصف العادات والأخلاق... إن الروائي المؤرخ لا يكفيه تقرير الحقيقة التاريخية الموجودة، وإنما يوضحها و يزيدها رونقا من آداب العصر وأخلاق أهله وعاداتهم حتى يخيل للقراء أنه عاصر أبطال الرواية و عاشرهم وشهد مجالسهم ومواكبها واحتفالاتهم، شأن المصور المتفنن في تصوير حادثة يشغل ذكرها في التاريخ سطرا أو سطرين فيشغل هو في تصويرها عاما أو عامين. فمقتل جعفر البرمكي عبر عنه المؤرخ ببعض كلمات، أما المصور فلا يستطيع تصويره إلا إذا كان مطلعا على عادات ذلك العصر و طبائع أهله و أشكال ملابسهم وألوانها، وضروب الفرس وأشكال الأسلحة ليمثل كلا من القاتل و المقتول بقيافته و شكله و ينبغي له أن يكون عالما بانفعالات النفس و ما يبدو من آثارها على الوجه أو في حركات الجسم، ليمثل غضب القاتل أو شراسته، و خوف المقتول و كآبته، غيرما تقتضيه الصناعة من تصوير مكان الواقع إن كان غرفة أو شارعا أو بادية أو حديقة و الزمان الذي وقعت فيه. و إن كان صباحا أو أصيلا أو عشاء و لكل من هذه الأحوال أشكال و ألوان لا يتم جمال الصورة إلا بإتقانها. و ذلك شأن الروائي بالنظر إلى التاريخ فهو يمثل تلك الأحوال أو يصور أشكالها و ألوانها بالألفاظ من عند نفسه، فيوشح الحادثة التاريخية بخلاصة درسه الطويل في آداب القوم وعاداتهم وأخلاقهم و التفطن لأثار العواطف في مظاهرهم، مع بيان ما يحف بتلك الحادثة المعاصرة ويطابق وضعه نظام الاجتماع و أحوال العائلة و إذا رجع المطالع إلى تحقيق الحوادث التاريخية على جمالها وجدها حقيقة ثابتة و ذلك ما توخيناه في سائر رواياتنا".

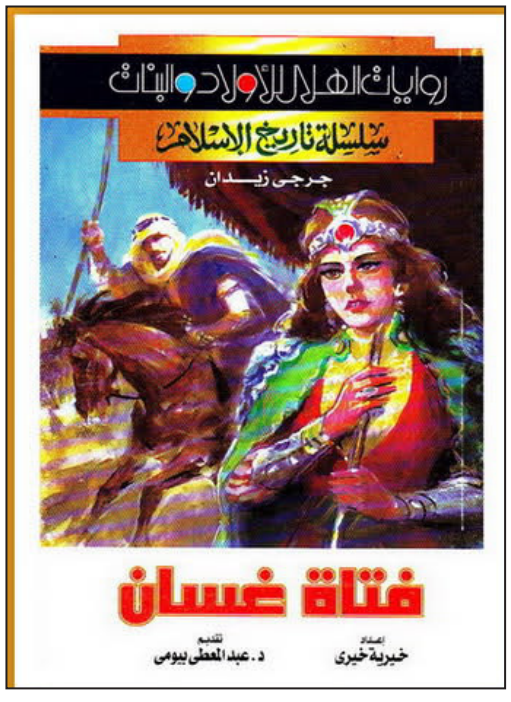

و من خلال هذه المقدمة، لا ينظر جرجي زيدان إلى التاريخ على أنه أحداث سياسية فقط، بل ينظر إليه على أنه حضارة وعادات وتقاليد وأخلاق وآداب، أي يسير على خطى الغربيين في تواريخهم حينما يركزون على كل مظاهر المجتمع ونواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية و دراسة ما هو رسمي في علاقته بما هو شعبي.

وينقسم الموضوع في روايات جرجي زيدان إلى قسمين كما قلنا سلفا: "أحدهما تاريخي مقيد بالشخصيات والحوادث والأماكن التاريخية الرئيسية والثاني غرامي خيالي توضع بين العاشقين الحوائل حتى يشرف الموضوع التاريخي على نهايته فتزول الحوائل ويلتحم شمل العاشقين". ويعني هذا أن الرواية عند جورجي زيدان تستند إلى القسم التاريخي و حوادثه الكبرى بكل شخصياتها و فضاءاتها مطبوعة بهاجس الصحة و اليقين، و القسم الفني القصصي وحوادثه الموضوعة والخيالية مبنية على الإيهام والخلق. إذا، هناك صدق وخيال وبالتالي، فالحدث التاريخي رئيسي والقصة ثانوية وتابعة.

وإذا أخذنا على سبيل المثال رواية (استبداد المماليك)، سنجد جرجي زيدان يسرد قصة عبد الرحمن وزوجته سالمة وابنه حسن وخادمه علي وما لقيته هذه الأسرة من معاناة وظلم وحيف وتشرد وغربة في ظل استبداد المماليك بمصر إبان علي بك الكبير وخلفه كذلك محمد بك أبو الذهب.

ويتقاطع في هذه الرواية الجانب التاريخي والجانب السردي الفني، فالجانب الأول يكمن في رغبة علي بك – شيخ المماليك – في الخروج عن طاعة الدولة العثمانية والاستقلال بمصر بمساعدة الجيش الروسي الذي دخل في حرب مع هذه الدولة الكبرى. وكان هم علي بك هو التحرر من الخلافة والانطلاق من القاهرة لتحرير الجزيرة كلها بمساعدة حاكم عكا الشيخ ظاهر الزيداني، بيد أن (محمد بك أبو الذهب) خليفة علي بك وصهره لما وصل بقواته الضخمة إلى سوريا، وقع على صلح و عهد بألا يكون واليا إلا للدولة العثمانية وأن يحكم مصر بدلا من علي بك مما أوقعهما في حرب أدت بهما إلى حتفهما.

انطلاقا من هذا الجو التاريخي والسياسي، يدين جرجي زيدان ظاهرة الاستبداد التي تفشت في مصر إبان المجتمع المملوكي من

خلال ما لقيته أسرة عبد الرحمن باعتبارها نموذجا اجتماعيا فقط من بأس شديد لا قبل لها به. فاغتصبت أملاك عبد الرحمن الذي يعد من أكبر التجار الصالحين بسبب الخنق على تجارته وإرهاقه بالضرائب غير المشروعة، كما أخذ الجنود الظالمون منه ابنه الوحيد وأرادوا إرساله إلى ساحة الحرب لمواجهة العثمانيين. ودفع أبوه الكثير لعلي بك ليفتديه. وعلى الرغم من ذلك فشلت كل محاولات الهروب من استبداده، مما أوقع الأسرة في مهب التشتت والغربة و الضياع، فافترق الأب عن زوجته وابنه و خادمه ولم يجمع الله شملهم إلا في عكا بعد عدة حوائل وبعد صبر ومعاناة وسفر وارتحال وحسن نية وعطاء و بذل الخير العميم والإحسان إلى الآخرين.

و في رواية (شجرة الدر) يصور جرجي زيدان صراع التتر بقيادة هولاكو مع العباسيين في عهد المستعصم بالله، و قضائهم على حكومة بغداد. وتصور كذلك ما كان يجري في مصر من صراعات سياسية حول السلطة بعد نهاية حكم الكبار الأيوبيين، لذلك تولت شجرة الدر حكم مصر وبذلك كانت أول ملكة في الإسلام، إلا أنها خلعت من قبل سلطان بغداد بمكيدة سلافة ليكون الحكم في الأخير لركن الدين بيبرس و الأمير أبي بكر أحمد بعد تراجع الزحف المغولي. وفي خضم هذا الصراع التاريخي نجد صراعا دينيا بين المذهبين: السني الذي تمثله الخلافة العباسية، والمذهب الشيعي الذي يدافع عنه سحبان و مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم بالله. و إلى جانب الصراعين: السياسي و الديني نجد صراعا غراميا يشارك فيه من الرجال عز الدين أبيك التركماني قائد الجيش بمصر وركن الدين بيبرس وسحبان، و من النساء شجرة الدر وسلافة والجارية شوكار. و هكذا يتم تبادل الحب بين ركن و شوكار، لكن الموانع السياسية وكثرة المكائد والحوائل ستعرقل زواجها لتكون النهاية سعيدة في آخر المطاف. إذ سيتم جمع شملهما في بغداد بعد أن تخلص ركن الدين من سلافة و كشف زيف حسبان وأطماعه السياسية وولائه الشيعي وكراهيته لخلفاء بني العباس. وهنا نلاحظ تداخل العقدة التاريخية مع العقدة الغرامية بشكل فني محكم.

و في رواية (العباسة أخت الرشيد) يصور جرجي زيدان نكبة البرامكة وأسبابها في عهد هارون الرشيد و زواج جعفر البرمكي من العباسة أخت الرشيد وماجر عليهما من ويلات ومصائب أودت بحياتهما وأولادهما. كما تبين الصراع الحزبي بين بني هاشم والموالي والعلويين و ميل الرشيد إلى مناصرة الفئة الأولى ودفاع وزيره البرمكي عن الفئتين الباقيتين. وتصف الرواية مجالس الخلفاء العباسيين و ملابسهم و مواكبهم وحضارتهم. كما تؤشر على الصراع السياسي حول السلطة بين الأمين والمأمون وجعفر بن الهادي والوزارة بين الفضل بن الربيع و جعفر البرمكي، و صراع زبيدة زوجة الرشيد مع العباسة أخته حول مكانتهما لدى أمير المؤمنين. وقد انتهت الرواية بنهاية مأساوية تتمثل في التخلص من الوزير البرمكي والعباسة وولديهما: الحسن والحسين بدون رحمة ولا شفقة.

و في رواية (١٧ رمضان) يؤرخ جرجي زيدان لمقتل علي بن أبي طالب من قبل الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي وفشل محاولة البرك بن عبد الله التميمي في قتل معاوية بن سفيان في دمشق وفشل عمرو بن بكر في قتل عمرو بن العاص. والرواية كلها تدور حول حيثيات الفتنة الكبرى و الصراع حول الخلافة بين علي ومعاوية وعمرو بن العاص و كيف ستنتقل الخلافة بعد ذلك إلى الأمويين. وإلى جانب ذلك تنقل لنا الرواية قصة كلا من سعيد وأخيه عبد الله. وقد انتهت الرواية بزواج سعيد بخولة بمباركة عمرو بن العاص وأب خولة.

إذا تأملنا بنية الأحداث في روايات جرجي زيدان، سنجدها تركز على الصراع الدرامي سواء أكان تاريخيا أم عاطفيا أم اجتماعيا في ثوب إنساني. ومن ثم، تغلب على رواياته العقدة التاريخية والعقدة الغرامية وهي دائما في خدمة الأولى. وتتشابه هاتان العقدتان في كل رواياته مع نوع من الاستثناء في رواية (استبداد المماليك) حيث نلتقي مع عقدة اجتماعية إنسانية، بينما نجد في رواية (جهاد المحبين) العقدة الغرامية تغلب العقدة التاريخية.

ويتكئ التوتر الدرامي في هذه الروايات التاريخية على الصراع بين مذهبين دينيين (شجرة الدر مثلا)، أو بين مذهبين سياسيين (استبداد المماليك مثلا). وتترابط الأحداث ترابطا منطقيا بحيث يتناوب الخط التاريخي مع الخط القصصي، فعندما ينتهي الكاتب من السرد التاريخي ينتقل إلى السرد القصصي، وبعد ذلك يعود إلى السرد التاريخي، وهكذا دواليك مستعملا

تقنيتي: التلخيص والتذكير لمفاصل السرد واسترجاع اللحظات التاريخية السابقة كما في هذا المقطع من بداية الرواية:

"انتهت رواية (فتاة القيروان) بدخول مصر في حوزة الفاطميين... سنة ٣٥٨هـ على يد القائد جوهر و بادت دولة الإخشيد، و خرجت مصر بذلك من حوزة الدولة العباسية لأنها كانت في زمن الطولونيين والإخشيديين، مع استقلال هاتين الدولتين بالحكومة تحت رعاية الخليفة العباسية في بغداد. وهو يثبتهم على الإمارة، و يبعث إليهم بالخلع أو بكتاب التولية... فلما دخلت مصر في حوزة الفاطميين تغيرت حالتها السياسية، وأصبحت دولة مستقلة بنفسها استقلالا تاما، لا تراجع أحدا و لا تعترف بسيادة أحد غير الخليفة الفاطمي المقيم في القاهرة. وهي أول مرة استقلت فيها مصر بالسيادة بعد الإسلام.

وهكذا تتخذ الروايات التاريخية عند جرجي زيدان بناء كلاسيكيا يتوازى فيه الخط التاريخي مع الخط القصصي ويتعاقب الواحد بعد الأخر ليكمل بعضهما البعض في إطار بناء زمني صاعد من الحاضر نحو المستقبل في حلقات تاريخية و عاطفية متسلسلة الأحداث في نموها و طبيعتها الفجائية في كثير من الأحيان، لتنتهي هذه الأحداث إما بنهاية سعيدة (١٧ رمضان – شجرة الدر – استبداد المماليك...)، أو بنهاية حزينة (العباسة أخت الرشيد...).

كما يستهل الكاتب رواياته بتقديم الفضاء المكاني التاريخي أو الفضاء الزمني أو الشخوص التاريخية المحورية في الرواية أو بوصف الإطار الفضائي الذي تجري فيه الأحداث المرجعية والعاطفية أو يستهلها بإبراز الحدث الرئيس الذي سيكون مناط الرواية من البداية إلى النهاية. وبعد تقديم الرواية واستهلالها بمداخل وصفية أو مكانية أو زمنية أو شخوصية أو حدثية يدخل جرجي زيدان إلى صلب الموضوع لعرض العقدتين: التاريخية والعاطفية لينهي روايته إما بحل سعيد يتمثل في جمع الشمل والزواج والانتصار على الشر و القضاء على كل العقبات و إزالة كل الحوائل المانعة، أو بحل تعيس يقضي على حب العشقين ويبدد أحلامهما وسعادتهما الحقيقية، وهذا ما يقع نادرا في روايات جورجي زيدان كما في رواية (العباسة أخت الرشيد)؛ لأن الحل السعيد هو الغالب على رواياته التاريخية كما أن هدفه أيضا هو إسعاد القارئ وطمأنته وعدم تخييب أفق توقعاته بانتصار الشر على الخير أو الحقد على الحب. و يرى محمد حسين هيكل أن جورجي زيدان يعمد إلى "مجرد نشر التاريخ يصوره تصويرا عاما دون إبراز فلسفة خاصة، فهو يعرض القديم عرضا حديثا، بينما الفنان الذي يستلهم ما حوله و يصوره لم يخلق بعد". ويفسر هذا أن جرجي زيدان إنما ينقل التاريخ بشكل عام و يصوره بطريقة فضفاضة من دون نقله من خلال رؤية فلسفية كما نجد عند بلزاك في رواياته التاريخية أو فيكتور هيجو في (أحدب نوتردام). وبالتالي، يلاحظ غلبة السرد التاريخي على السرد الفني، وتكثيف المختزل في الوصف. وليس هناك تحليل للمواقف الإنسانية و استكناه البواطن الشخصية. فهناك فقط عرض للصراع بين شخصيات تمثل الشر و شخصيات تمثل الخير دون تبيان دوافع هذا الصراع و حيثياته وجوانبها النفسية والإنسانية بطريقة تحليلية وفنية قائمة على الاستقراء الشعوري واللاشعوري. وليس هناك نقد لبعض الشخصيات الدينية مثل: المجاذيب الصوفية ورجال الطرقية ورجال الدين من المسلمين والنصارى. فهؤلاء وصفوا بالمثالية والنموذجية الطاهرة ولاسيما المسيحيين من فئة الرهبان والقسيسين ورجال الدير والكنائس. وهكذا تتشابه شخصيات جرجي زيدان في خطوطها العريضة ونفسياتها وسلوكياتها ومواصفاتها الخارجية و الداخلية، وهي شخصيات تاريخية حقيقية في القسم التاريخي، وشخصيات متخيلة وموضوعة فنيا في الجانب القصصي. فهذه الشخصيات "حين تعبر عن حبها أو عن قلقها تعبر بصورة تكاد تكون متشابهة، فقلق الرشيد على عرشه هو نفسه قلق السلطان عبد الحميد عليه وحب كل سلطة، هو نفسه حب البطلة الأخرى حتى إن مواقف الأبطال وتعبيرهم عن شعورهم وانفعالهم إزاء

الإحداث أو الطبيعة يتشابه في روايات جرجي زيدان المختلفة، وجرجي زيدان لا يجد لديه متسعا من الوقت ليحلل نفسيات أبطاله ويتعمقها، وحين يحاول هذا التحليل يلجأ في أحيان كثيرة إلى التحول بالقضية من تحليل لشخصية معينة إلى قضية عامة تنطبق على جماعة كبيرة من الناس".

ويكتفي الكاتب أيضا برؤية سردية واحدة في كل رواياته هي الرؤية من الخلف وضمير الغياب مصورا الشخصيات بأبعادها النفسية و الفيزيائية محركا إياها من منظور علوي ومن خلفية سياسية أو دينية في إطار ثنائية الخير و الشر أو الشقاء والسعادة. ويتكئ كذلك على السرد أسلوبيا ويتبعه بالحوار الذاتي في مواطن أخرى.

ولغة هذه الروايات عربية فصيحة تمتاز بالسهولة والليونة والسلاسة و عذوبة الإيقاع وإنشائية الكلام، تخاطب العقل تارة حين يحضر السرد التاريخي ويعقبه التعليم والإفادة وتخاطب الوجدان والعاطفة تارة أخرى حين يحضر السرد القصصي ويعقبه الترفيه و التسلية والإمتاع. إنها لغة مقالية هذبتها الصحافة ولينتها شروطها المنبرية ورغبات المتلقي الجماهيري ومتطلبات الإرسال التواصلي الحديث. إنها لغة بعيدة عن الركاكة والمحسنات البديعية التي كبلت الكتابات النثرية في عصور الانحطاط والجمود العثماني، كما أنها بعيدة عن العجمة والعامية المبتذلة غير المفهومة.

وهكذا نجد أن الطابع المقالي للصحافة كما يتشخص في منبر "الهلال" يسم كتابة هذه الروايات ولغتها الفنية التشويقية الرائعة كأننا أمام مقالات تاريخية أو مواضيع إنشائية في الغرام أو التاريخ.

أما عن معمار الروايات فهو معمار كلاسيكي قائم على البناء المتنامي الصاعد الجدلي والخط المتوتر الذي ينطلق من الحاضر إلى المستقبل من خلال خاصية التوازن واللاتوازن أو خاصية التناوب أو التعاقب بين الخط السردي التاريخي والخط السردي القصصي. كما نتبين بكل وضوح مدى الانفصال بين المتواليات السردية بين الخطين: التاريخي و القصصي، كأن الرواية تنقسم إلى قصص صغرى. فالموضوع – كما يقول محمود شوكت – يقوم "على نطاق واسع، تتخلله صور صغرى من الصراع. وفكرة الصراع فكرة غربية، تقوم عليها معظم الروايات، فتصور صورة من صور الصراع الصغرى في "فتاة غسان" على طريقة تصوير و الترسكوت لها في رواياته "إيفنهو" و"الطلسم" ممثلة في تصوير المبارزات على الطريقة الغربية، كذلك تبرز صور الصراع في المؤامرات. و هذه الصورة مرتبطة بالتطور الخارجي للموضوع. و تثير اهتمام القارئ دون أن تتصل اتصالا مباشرا بلوازم الحركة الدقيقة في القصص".

ونستشف من قراءاتنا لروايات جرجي زيدان أن دراسته للتاريخ سطحية على الرغم من تعمقه في الجوانب الحضارية واستقراء للحياة الشعبية وعوائد الناس و ثقافتهم وأعرافهم ومظاهرهم الدينية. كما أن رواياته في حاجة إلى وحدة فنية أو تحليل نفسي منسجم أو ارتباط سببي لحوادث الموضوع وصلة ذلك بالبيئة أو صدق الوصف التاريخي و الجغرافي.

ومناصيا، فروايات زيدان ذات عناوين زمنية (١٧ رمضان) وحدثية (الانقلاب العثماني – جهاد المحبين – استبداد المماليك)، وعلمية شخوصية (الأمين و المأمون – الحجاج بن يوسف – أحمد بن طولون...) ووصفية (المملوك الشارد – أسير المتمهدي...)،و مكانية (فتاة غسان – عروس فرغانة....). وهذه العناوين كلها مركبة اسمية وردت بالصيغ التالية:

ا- خبر + مضاف إليه (فتاة غسان/ عروس فرغانة...)؛

ب – مبتدأ + صفة (الأرمانوسة المصرية/ الانقلاب العثمانية...)؛

ج – المبتدأ + بدل (الحجاج بن يوسف/ أحمد بن طولون....)؛

د – المبتدأ + عطف (شارل وعبد الرحمن/ الأمين و المأمون...)؛

هـ – المبتدأ + خبر (العباسة أخت الرشيد....).

إذا، نلاحظ هيمنة الجملة الاسمية والمركب النحوي (خبر + مضاف إليه) والتركيب اللفظي الثنائي على البنية العنوانية لروايات جرجي زيدان، أي يتكون العنوان الروائي الخارجي في العموم من كلمتين ليس إلا. بيد أننا نجد بعض العناوين تتعدى هذه الثنائية اللفظية كما في عنواني (صلاح الدين الأيوبي) و(أحمد بن طولون)....

و قد استعانت روايات جورجي زيدان بحيثيات النشر وملخص عنواني يوضح الجوانب التاريخية التي تبناها في الكتابة. أما العناوين الداخلية فهي موجزة و غالبا ما تتخذ طابع المركبات الاسمية فتلخص أحداث الرواية و توجزها و تعكسها، و هي إما عناوين مكانية أو حدثيه أو زمنية أو شخوصية أو وصفية.

و هناك من الروايات من أرفقت بلوحات تشكيلية خارجية وداخلية بينما أغلبها اكتفت باللوحة الأيقونية الخارجية التي تقدم صورا لشخوص الرواية أو إشارات لأحداثها التاريخية كما في روايات (صلاح الدين الأيوبي) و(الأمين و المأمون). فمن الصنف الأول نجد:

١- صلاح الدين الأيوبي؛
٢- عبد الرحمان الناصر؛
٣- أبو مسلم الخراساني ؛
٤- الانقلاب العثماني ؛
٥- فتح الأندلس.....الخ.

وما يلاحظ على روايات جورجي زيدان التاريخية أنها تكرس الفن لخدمة التاريخ، لذلك يصبح الحدث القصصي أداة للتسلية و الترفيه ويبعد عن القصة جانب الإفادة أو الثقافة ليربط ذلك بالتاريخ على حساب الفن. بينما الرواية هي فن المعارف تحوي كل الخطابات والأجناس واللغات وتخاطب العقل والوجدان معا.

كما يلاحظ كذلك تشويه كبير في الحقائق التاريخية و الانحياز إلى بعض الأطراف دون الأخرى كالدفاع مثلا عن الموالي و الشيعة ضد بني هاشم أو الدفاع عن القساوسة و الرهبان والاعتماد على أراء مغلوطة للمؤرخين الغربيين أو المستشرقين.

وعليه، فإننا نستشف أن هناك تشابها في البنية السردية في هذه الروايات على مستوى الأحداث و تقاطعا بين ما هو تاريخي وما هو قصصي، ونلمح أيضا تشابها في الاستهلال الروائي والعقد والمصائر والحلول بعد تذليل الحوائل والعوائق المانعة لشخوص الرواية المتصارعة إلى جانب التشابه في الشخوص التاريخية والفنية الموضوعية وتقنيات الوصف العام الحضري والشعبي للموصوف سواء أكان شخوصيا أم مكانيا أم أشياء أم وسائل علاوة على التشابه في الرؤية السردية ذات الراوي العارف بكل شيء والمزاوجة بين السرد و الحوار و تليين اللغة العربية وتفصيحها وتهذيبها بمستلزمات الصحافة و الكتابة المقالية.

وأخيرا، إن النصوص السردية التي كتبها جرجي زيدان تمثل خير تمثيل رواية التشويق الفني للتاريخ؛ لأنها تستقرئ تاريخ الماضي أو الحاضر بلغة سهلة معاصرة من خلال الارتكاز على العقدتين: التاريخية و الفنية. ولكن يبقى جرجي زيدان مخلصا ووفيا للحدث التاريخي مع التصرف الفني في الجانب القصصي والروائي لتحقيق المتعة الفنية والفائدة التاريخية

تتخذ الروايات التاريخية عند جرجي زيدان بناء كلاسيكيا يتوازى فيه الخط التاريخي مع الخط القصصي ويتعاقب الواحد بعد الأخر ليكمل بعضهما البعض في إطار بناء زمني صاعد من الحاضر نحو المستقبل في حلقات تاريخية و عاطفية متسلسلة الأحداث في نموها و طبيعتها الفجائية في كثير من الأحيان

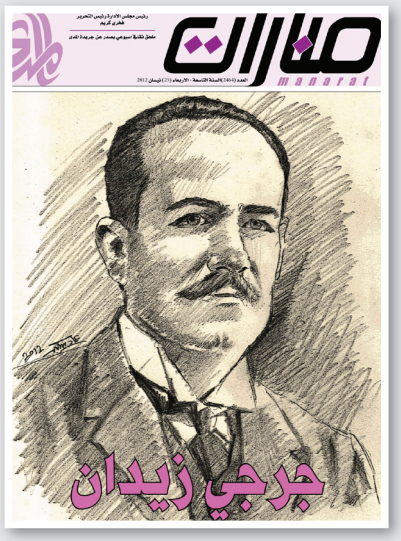

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

فخري كريم

من محاسن الأيام، ان نعثر على عدد من مجلة الهدف (العراقية) التي كرست عددها (١٥٣) الصادر في ٢١ تموز ١٩٣٩ عن جرجي زيدان بمناسبة مرور ربع قرن على رحيله.
وقد نشرنا العديد من مواد هذا العدد اعتمادا على العدد الخاص التي اصدرته هذه المجلة، حيث سيجد القارئ ان الكثير من المواد بقلم صحفيين وادباء عراقيين راحلين

مدير التحرير

علي حسين
الاخراج الفني

ديار خالد
التصحيح اللغوي

محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

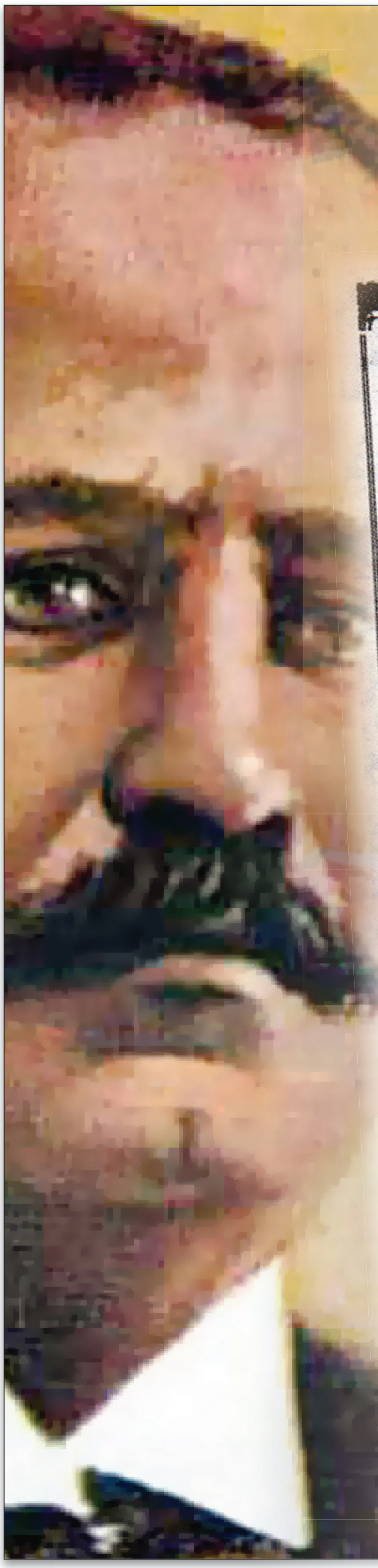

من سبتمبر سنة ١٨٩٢ الى اغسطس ١٨٩٣

الهلال

مجلة علمية تاريخية صحية أدبية

لمنشئها

جرجي زيدان

قيمة الاشتراك خمسون قرشاً مصرياً في السنة بالقطر المصري و ١٢ شلناً او ١٥ فرنكا في الخارج

AL-HILAL

A Fortnightly Scientific & Literary Arabic Review

Edited by

G. ZAIDAN M. R. A. S.

Subscription; 12 sh. or 15 Frs. Per Annum

Vol. I

Second Edition

From September 1892 — August 1893

AL-HILAL Printing office, Faggalah, Cairo, Egypt

طبع بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر طبعة ثانية سنة ١٨٩٨

العدد الأول من مجلة الهلال الذي صدر عام ١٨٩٢